أسرارٌ تاريخيّة

خبيئةٌ في أسماء

جعفر المهاجر

المؤلف : **الشيخ د. جعفر المهاجر**

الكتاب : **أسرارٌ تاريخيّةٌ خبيئةٌ في أسماء**

إعـداد مركز بهاء الدين العاملي للأبحاث والدراسات

www.mobdie.org

هاتف : ٠٠٩٦١٨٣٧١٦١٩

هاتف وفاكس : ٠٠٩٦١٨٣٧٧٧٥٦

dr.jaafarmohajer@gmail.com

نشر : دار بهاء الدين العاملي للنشر ،

الفهرســـــت

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربِّ انفعني بما علّمتني ، واجعله لي ، ولا تجعله عليّ)

الــمـقــــــدمـــــة

(١)

مامن أمرٍ أرضى لقلب الباحث من أن يكشف منبع حقيقةٍ لاحظها بنحوٍ مّا . فيرى عبرَها الطريقةَ التي تعملُ بها الأشياءُ عملَها المُبدِع . ابتداءً من المُلاحظة ، التي تكون أحياناً هيّنةً . وانتهاءً بكشف سرّها المكتوم ، الأكبر دائماً من المُلاحظة نفسها . لكنّ كلاهما يقتضي فُضولاً حيّاً ، لا يكفُّ عن طرح الأسئلة . بالإضافة إلى استيعاب المُعطيات المُحيطة بالسؤال ، الذي مرّ عليه غيره ، دون أن يُقلقه ويُحرّكه باتجاه الجواب .

هذاالكلام لايصحُّ على بحثٍ صحّتَه على سعي التاريخ. وهو ذلك العامل المُراوغ ، الذي يعملُ ويُغيّرُ مقاديرَ البشر، ثم لايلبثُ أن يختفي ، تاركاً حيناً أثراً ضئيلاً . مع أنّ عمله ذكيٌّ ليس يخلو من انسجامٍ وتكامُل . عنوانه الرّبّاني الخفيّ (التّداول) (وتلك الأيام نُداولها بين الناس) (آل عمران / ١٤٠) . بالنّظر إلى أنّ (التداول) عملٌ ربّانيّ بمعنىً .

(٢)

ما بين دفّتَي الكتاب هو ما كنتُ قد انتخبتُه من تسجيلاتٍ عديدةٍ لديّ . الأمرُ الجامع بينها ، أنّها تدورُ على

أسماءٍ مُتداولَةٍ لبشر، جماعاتٍ أو أفراد ، ولمواقع على الأرض . ابتغاء كشف ما وراءها من خفايا .

أمّا الاعتبار في انتخابها دون غيرها ، فليس هو أهميّتها بالقياس إلى غيرها ممّا حوته تسجيلاتي . بل لأنني قد وصلتُ عبرَها بالبحث إلى تفسيرٍ تاريخاني إلى وجه العلاقة بين الاسم وبين المُسمّى ، حيث اختبأ سرٌّ من أسرار التاريخ . ممّا هو منكورٌ لايؤبهُ به . أو ممّا هو معروف، لكنّه يتنافى مع الحقيقة . وعلى كلّ حال ، دائماً كانت دراستُنا على الاسم البابَ الذي ولجنا منه إلى ما رأيناه سرّاً كشفناه أو خطأً صوّبناه . وذلك يدلُّ على الطاقة العجيبة التي تختزنها الاسماءُ داخلَها . لكنّه يدلُّ أيضاً على أن توظيف هذه الطاقة في البحث التاريخي ليس سهلاً أو مجّانيّاً .

أرجو أن يجدَ القارئُ الحصيف في هذه التجربة غير المسبوقة في الكتابة التأريخيّة مايُعادلُ ما بذله الكاتبُ من جُهدٍ في تركيبها .   والحمدُ لله

بعلبك ١٢ رجب ١٤٤١هـ . ذكرى دخول الإمام أمير المؤمنين الكوفة واتخاذها عاصمةً له .

٧ آذار/ فبراير ٢٠٢٠ م

تــوطـئــة

(١)

إنّ المادّة الأوّليّة ، التي يبني منها المؤرّخ كتابته أو يصوغ منظوره التاريخاني ، هي أُولى الإشكاليّات التي عليه أن يقطع عليها برأي . ثم أنّ عليه أيضاً أن يُبيّنه للقارئ . لأنها تُبيّن له قيمة المُستندات التي يعتمدها المؤرخ ، وسيكون لها أبعد الأثر على البناء الذي سيشيده منها . كما سيكون عليه أن يأخذ بعين الاعتبار وجاهتَها ورُتبتَها في سلسلة الموادّ التي بين يديه ، بين أُولى وثانويّة . لكلٍّ منها موقعه ووظيفته بين دليلٍ مستقلٍّ وبين مؤيّدٍ له ، أو قد يكون أحياناً دليل نفي وتفنيد .

فمن الموادّ الأوّليّة الأُولى ، من حيث الرتبة ، روايات الشهود ، عن مُعاينةٍ أو سَماعٍ مباشر. ومن وثائق من الدرجة نفسها (مُدوّنات ، سجلاّت ، نقوش ، رقائم ، مُذكّرات ، سيرة ذاتيّة . . . الخ.) .

ومن الثانويّة الأدنى رتبةً الروايات والمُدوّنات المُتأخرة عن زمن الحدَث أو عن صاحب السيرة، شفاهيّةً كانت أم كتْبيّة ، والمرويات الشفويّة المُتداولَة غير المنسوبة ، وإن تكُن هذه قد تكون أحياناً ذات قيمة عظيمة لاتُبارى ، لا سيّما في التأريخات

البعيدة في الزمان ، التي ترتفع إلى ما قبل زمن التدوين .

وعلى كلّ حال ، فإنّ من المعلوم أن قيمة الموادّ الأوليّة من الرتبة الأُولى تفوق من حيث المبدأ الثانويّة منها . لكنّ هذه قد تكون عظيمة النفع أحياناً ، بوصفها مؤيّدات أو مُفنّدات لِما قد أتت به بعض المصادر الأوليّة . خصوصاً حيث تختلف هذه في معطياتها أو في بعضها .

(٢)

مهما تكن قيمة المصادر الأوليّة التي يأخذ عنها المؤرخ من حيث المبدأ ، فإنّ عليه أن يأخذ بعين الاعتبار دائماً موقعَ الرّاوي أو الكاتب وموضوعيّتَه وحيادَه وكفايتَه في فهم الاحداث ورواياتها. ومن الغنيّ عن البيان أنّ علينا أن نكون حذرين جدّاً فيما يأتينا به راوٍ أو كاتب ، نعرفُ أنّه يولي التزامه السياسي أو المذهبي أو النّسَبي أو الشخصي اعتباراً غالباً على مادة وأُسلوب عمله . وما أكثرَ هذا الأُنموذج في تاريخنا الرسمي .

(٣)

ثم أنه بفضل التقدّم الكبير ، وارتفاع درجة الاهتمام ، واتساع العمل على الآثار المادّية القديمة ، حصل عندنا تقدّمٌ مُوازٍ في درجة معرفتنا بالحضارات القديمة المُندثرة ، لا سيّما في

"الشام" و "مصر" و"العراق" وغيرها ، التي لم تكُن محلّ اهتمام مؤرخينا من قبل . مع الإشارة إلى أن هذا النمط من الاهتمام لم يحصل في "شبه الجزيرة العربية" لأسبابٍ (دينيّة) مزعومة .

(٤)

آخر إضافةٍ إلى تلك الموادّ الأوّليّة للكتابة التاريخيّة بدأت في العقود الأخيرة باستفادة المؤرخين من التقدّم الكبير الذي حصل في تقنيات تحليل الحمض النووي للبشر في معرفة الأُصول البشريّة . حيث قدّمت للمؤرّخين معلوماتٍ جمّة وقويّة على وجوه اندماج الجماعات البشرية وتشعباتها وهجراتها منذ أقدم العصور.

فهذه على نحو الإجمال ماعليه العمل بين المؤرخين اليوم على ما سمّيناه المادّةَ الأوّليّة التي يُركّبُ منها المؤرّخُ رؤيتَه أو منظورَه التاريخاني . أوردناها على سبيل التمهيد للتعريف بما نرى فيه مادّةً أوليّة إضافيّةً على كلّ ماذكرناه ، نرى أنّها لم تحظَ بالاهتمام الذي تستحقّه بوصفها مادّةً أوّليّةً موثوقةً أو مقبولة على الأقلّ لكتابة التاريخ .

(٥)

نعني بهذه المادّة الأوّليّة المنكورة عمليّاً الاسماءَ ، أسماءَ

الأشخاص والجماعات، وأسماءَ المواقع الجغرافيّة والطوبوغرافيّة ، بالنظر لِما قد يكون فيها من دلالات تاريخيّة .

ذلك أنّ هذه الاسماء إجمالاً إنما توضع مبدئيّاً ابتغاء تمييز موضوعاتها بعضها عن بعض . بيدَ أنّ اختيارها يخضع لاعتباراتٍ ثقافيّة كامنةٍ ، آتيةٍ من الثقافة السّائدة ، أو من الحالة التاريخية التي كانت عليه موضوعاتها آنَ وضع تلك الاسماء . وبذلك تتجاوز الغايةَ الأوليّةَ منها. لتغدو أوعيةً يودع فيها الناسُ جانباً أوعنصراً أو أكثر من جوانب أو عناصر هويّتهم أو تاريخهم . ستظهر قيمتُها بعد أن تضيعَ هذه أو تُنسى ، ولا يبقى منها إلا ما هو مودَعٌ في بعض هاتيك الاسماء .

هو ذا ما قد يمنحها فيما بعد قيمةً خاصةً لدى المؤرّخ الإنساني .

(٦)

والحقيقة أنّ هذا البحث ما هو إلا نتيجةٌ لِما تراكم لدينا من تجاريب جمّةٍ في هذا النطاق . ولطالما وصلنا عبرَ أسماء بعض البشر أفراداً وجماعاتٍ، أو أسماء بعض المواقع الجغرافيّة والطوبوغرافيّة إلى نتائج تأريخيّة طريفة ، ماكان يمكن أن نَصِلَ إليها عن أي طريقٍ آخر ، للافتقار إلى النصوص التي تتجه

مباشرةً إلى إشكالية البحث الذي نعالجه ، وسنقفُ عليها أدناه .
غالباً لأنها لم تكُن موضع عنايةٍ أو ملاحظةٍ من الذين سجّلوا تاريخنا، الذي تغلُبُ عليه الصفة السُلطويّة . وبذلك يبتعد مسافةً مناسبةً عن الصفة الإنسانيّة ، التي منها تلك الاسماء وما قد يكون فيها من دلالات .

(٧)

إن الاسماء، سواءٌ كانت للبشر أفراداً وجماعات ، أم للأماكن والمواقع ، هي خصوصيّةٌ بشريّةٌ قادمةٌ من خصوصيّة اللغة (ومن ضمنها الرياضيّات) بهذا الانسان، (أولاد آدم) بحسب الانثروبولوجيا الإيمانيّة ، والأُخرى المُسماة (homosapiens) بحسب الانثروبولوجيا الموصوفة بـ العلميّة، دون كلّ مانعرفه من مخلوقات . وجه أهميّتها المُطلقَة أنّها تستحضر المُسمّيات استحضاراً رمزيّاً ، أي دونما حاجةٍ إلى حضورها أو استحضارها موضوعيّاً . لكنّها، بالإضافة إلى ذلك ، وذلك هو وجه أهميّتها عندنا الآن ، أوعيةٌ يودع فيها الناس عفواً ودون قصد جانباً من خصوصيّتهم الثقافيّة ، أو ملمحاً من ملامح حالتهم التاريخيّة .

فنحن حين نسمع اسم أي إنسان، فإننا قد نعرف عفواً بعض خصوصيّاته : منبته، أي البيئة الثقافية أو الجغرافيّة أو

الاجتماعية التي ينتمي إليها ، من حيث النسب أو اللغة أو الدين والمذهب . . الخ . وكلما كانت معلوماتنا بأحد هذه الشؤون أغنى، كانت استفادتنا من الاسماء أوسع وأوفى دقّةً وكفايةً .

فإن نحن عرفنا من شخصٍ أنّ اسمه ، مثلاً ، عبد الحسين ، فإنّنا فسنعرف عفواً ، على نحو الترجيح القوي ، أنه مسلمٌ شيعيّ. وإذا كان اسمه عبد القادر فهو على الأرجح مسلمٌ سُنّيّ . وإذا كان اسمه حنّا، فإنّ الأرجح أنه مسيحي كاثوليكي، وأنطوان مسيحي أرثوذكسي، وهكذا. والأمثال على ذلك لاتتناهى، سواءٌ في أسماء البشر أم في أسماء المواقع . وما من داعٍ لإيراد المزيد من الأمثال فيما يخصُّ المواقع والأماكن، اعتماداً على ما سنأتي عليه منها في عمود البحث الآتي .

(٨)

ولعلّ من أطرف الشواهد على العلاقة القويّة بين أسماء البشر وبين جانبٍ من مواصفاتهم العمليّة ، ماقد لاحظناه من اختلاف النِّسَب المُلحقَة بأسماء الاشخاص في منطقتيَن ثقافيّتيَن عريقتيَن. هما المنطقة الثقافية الفارسيّة (إيران ، بلدان آسية الوسطى، آذربايجان، المناطق الإسلامية من شبه القارّة الهنديّة) والمنطقة الشاميّة .

ذلك أننا لاحظنا أنّ الأُولى منهما تغلبُ عليها نسبةُ الاشخاص والأُسرات إلى البلدان التي وُلد المُسمَّون أو نشأوا أو عاشوا فيها : قُمّي ، طهراني ، قزويني ، تبريزي ، خويي ، لكهنوي ، هروي ، لاهوري . . . الخ . بحيث أنّ من النادر أن تجد هناك من يُنسب إلى غيرها .

أمّا المنطقة الشّاميّة فالغالب عليها النسبة إلى المِهَن : نجار ، حداد ، صائغ ، فحّام ، لحّام ، صابونجي ، قهوجي ، ميقاتي ، طرابيشي .... الخ.

النسبة إلى البلدان قد توجد في هذه نادراً جداً . هنا لاحظنا أنها في هذه المنطقة خصوصاً إنّما تدلُّ على أنّ المنسوب من المُنتقلين إلى البلد الذي يعيش فيه من بلدٍ غيره. فعندما نجِدُ في دمشق ، مثلاً ، أُسرةً منسوبةً إلى بعلبك (البعلبكي) . فهذه إمارةٌ قاطعةٌ ، أو قويّةٌ على الأقلّ ، تدلُّ على أنّها بعلبكيّة الأصل . كانت قد تحوّلت في الماضي إلى سُكنى موطنها الحالي .

هذه الملاحظة قد تكون أحياناً ذات أهميّةٍ كبيرةٍ للمؤرخ الانساني ، الذي من جملة اهتماماته رصْد الحركات السُكانيّة بين البلدان ، وتأثيرها على صورة المجتمع الحاليّة ، وعلى مادتها

التي كانت قد تشكّلت في الماضي . ومن البيِّن أنّ هـذا القبيل من النِّسَب وماشابهها قد تنطوي على تسجيلاتٍ ضمنيّةٍ لحركة سُكّانيّة . شرط أن تكون من حجمٍ يصلح لأن يُعبّر عن حركةٍ حقيقيّة ، أي أنّها ليست حالةً فرديّة صغيرة ، قد تكون خاضعةً لأسبابٍ شخصيّةٍ بحتة. إن هي نفعت فبكتابة سيرةٍ شخصيةٍ لصاحبها عند اللزوم وليس أكثر .

(٩)

مهما يكُن ، فإن علينا ، مادمنا نبحث عن الأسـرار الخبيئة في بعض الاسماء، أن نتساءل : ما هو السرّ الخفيّ الكامن وراء تلك الظاهرة بوجهيها ؟

ما هو السبب الذي جعل أهل المنطقة الثقافيّة الفارسيّة يؤثرون أو بالأحرى يدرجون على الانتساب إلى بلدانهم . في حين آثر الشاميّون أو درجوا على الانتساب إلى مهنهم ؟

في الجواب نقول :

ممّا هو بغنىً عن البيان ، أنّ الأمر الجامع بين الطريقتيَن ، البلديّة الفارسيّة والمهنيّة الشاميّة ، والحافز الدّاعي لتذييل أسماء الناس إجمالاً بصفةٍ عامّةٍ ما ، بعد الأوصاف الشخصيّة الخاصة (الاسم واسم الأب مثلاً) ، إنّما هو الحاجة

إلى التعريف تعريفاً وافياً بالشخص، في كلّ وجوه شبكة علاقاته، لأسبابٍ أمنيّةٍ غالباً . الأمر الذي تؤدّيه اليوم بنحوٍ أدقّ بكثير بطاقاتُ الهُويّة ، جوازاتُ السفر، بطاقاتُ المصارف ، البطاقاتُ المهنيّة . . . الخ . التي لايستغني أحدُنا اليوم عن حملها في حلّه وترحاله .

ومن ذلك في تاريخنا القديم ، أنّه كان من دأب أسلافنا الأعراب ، حين يلتقي أحدهم بآخر لايعرفه ، أن لا يكتفي منه ، أو بالأحرى قد لايهتمّ بالدرجة الأُولى بمعرفة اسمه الشخصي ، بل يطلب منه أوّلُ ، وقبل أي حديث ، أن ينتسب له بذكر اسم قبيلته . وعلى ضوء ما قد يعرفه كلا الاثنين من نسب صاحبه تتبني العلاقة بين الاثنين ، ودّيّة ، أو حياديّة ، أو حذِرَة .

(١٠)

والذي يلوح لنا عفواً أنّ الفارق الثقافي في هذا الشأن بين الاثنين الفارسي والشامي إنّما يرجع إلى عاملٍ فارقٍ سياسيّ في الأساس .

ذلك أن المنطقة الشاميّة منهما كانت ، بعد انهيار الدولة الإسلاميّة الجامعة ، ذات صفةٍ مركزيّة حاضرتها مدينة "دمشق". فلم يكُن ثمّة من فائدةٍ أو فارقٍ مفيدٍ بتعريف الشخص ببلده ،

لأن كلّ أهلها سواء بالاعتبار السياسي ــ الاجتماعي. في حين كانت تنظيمات السوق فيها قـويّـةً . الأسواق مُصنّفةٌ مهنياً : سـوق الصاغة ، سوق الحدّادين، سوق المناخليّة ، سوق الهال ، سوق السروجيّة (صانعي السُّروج) . . . الخ. كما لاتزال بعض أسمائها في "دمشق" اليوم ، حتى بعد أن زالت مقتضياتها (مثاله سوق السّروجيّة) . بل وكان لكل سوق منها مرجعٌ مهني يحمل لقب (شيخ السوق) . له سُلطةٌ مرجعيّةٌ احترافيّةٌ مطلقةٌ على أقرانه المهنيين .

فمن هنا كان تذييل اسم الشخص بذكر مهنته ينطوي على تعريفٍ ، أو على الأقلّ مقدمة تعريف كافٍ بالمُسمّى ، بل وبمرجعيّته حين اللزوم ، وبل قد يساعد أيضاً على معرفة محلّ عمله . وكلّ هذه من اللوازم الأمنيّة .

أمّا في إيران ، قلب الثقافة الفارسيّة ، فكانت في الفترة نفسها ، أي بعد انهيار الدولة الساسانيّة الجامعة ، تفتقر إلى الصفة المركزيّة سياسيّاً . بل مضت عليها فترةٌ طويلةٌ ، استمرّت قروناً من الزمان ، انحدرت فيها الهويّة الجامعة انحداراً عنيفاً ، لتمنح محلّها إلى الدُوَل ــ المُدُن . حيث كلُّ مدينة كبيرة كانت حاضرةَ دولـةٍ قائمةٍ بنفسها ، من حيث نظام الحكم السّائد فيها،

أو من حيث الدولة المُتغلّبة عليها وعلى نطاقها. فكان الانتساب إلى المدينة وسيلةً ممتازةً كافية ، أو على الأقلّ تساعد على التعريف بالمُسمّى. بل وسرى هذا التقليد حيثما وصلت الثقافة الفارسيّة من ثلاث جهاتها: (آذربايجان ، آسية الوسطى / ما وراء النهر، المناطق الإسلاميّة من الهند) ربما على سبيل تقليد الغالب ، بمعنىً أو بغيره من معاني الغلبة. ثم استمر ذلك في "إيران" وفي المناطق المُتأثّرة بها ثقافيّاً ، حتى بعد أن زالت مقتضياته الموضوعيّة في بلد المنشأ، منذ قيام النهضة الصفويّة، التي أعادت توحيد"إيران" ، وألغت دُول الطوائف، ومنحتها حكماً مركزياً قوياً حتى اليوم . لأن الاستمرار هو سيّد التاريخ . وكم لذلك من أمثال .

***

فذلك مثال سُقناه أمام متن البحث ، برسم القارئ ، على سبيل بيان قوّة العلاقة بين الاسماء وبين المواصفات العملانيّة لذواتها . تحضيراً لذهن القارئ اللبيب للدخول في عمود بحثٍ نظنُّ أنه غير مسبوق . وقديما قيل : الناس أصحاب ما عرفوه وألفوه وأعداء ماجهلوه .

والحقيقة أن ما من اسمٍ إلا يُخفي سرّاً ما. قد يكون هيّناً

لاشأن له ، كما قد يكون جليلاً . ولكنّه دائماً يحكي جانباً من ثقافة من اختاروه دون غيره ، أو جزءاً من تاريخهم ، أودعوه عفواً وبكامل التلقائيّة في الأسماء الدّائرة بينهم .

الفصل الأول

" أبي" الكُنية الفريدة

(١)

الكُنية (أبو. . .) ممّا يتبادله الناس اليومَ في مخاطباتهم على سبيل التحبُّب والتودّد . وهي تتركّب عادةً من كلمة "أبو" مُضافةً إلى اسم ابن المخاطَب البكر. هكذا فعندما نُخاطب شخصاً بكنيته فهذا يُلمِحُ ضمناً إلى أننا نعرفه ونعرف عنه ما يكفي . كما ونعرف خصوصاً من خصوصيّاته الأُسريّة التي لاتُحتشَم أسمَ أكبر أبنائه . بخلاف اللقب الذي يأتي للتعظيم أو لعكسه . واستعماله في المخاطبات ينطوي على موقفٍ مناسبٍ للقب من الشخص المخاطَب .

والكُنية بـ (أبو) الشائعة في أسماء الأُسرات هي من خصوصيّات المنطقة الشاميّة / "الشام" ، شائعةٌ جداً فيها. يبدو أنّ أصلها كنيةٌ لشخصٍ، ثم أنّها قد تسري وتبقى من بعده في نسله جيلاً بعد جيل . وهي تُعامَلُ عندهم مُعاملة المبني على الضمّ دائماً : (أبو) .

(٢)

موضع الملاحظة هنا ، أن منطقة "جبل لبنان الشمالي"

حصْراً تختصُّ ، من بين كلّ أنحاء المنطقة الشّاميّة إجمالاً ، بأنّ الجزء الأول من الكنية (أبـ . . .) تُعامَل أيضاً فيها معاملة المبني ، ولكن غالباً جداً على الكسْر(أبي) . بحيث أننا نجدُ فيها مئات الأُسرات التي تحمل في اسمها كلمة (أبي) ، مُضافةً إلى اسم شخص.

لكننا ماإن نعبر الطريق القديم ، الفاصل بين "جبل لبنان الشمالي" وبين "جبل لبنان الجنوبي" ، المعروف قديماً وحديثاً باسم "طريق الشام" ، فإننا لن نجد هذه الـ (أبي) إلا نادراً.

(٣)

إذن فالمُلاحظة هنا من شقّيَن :

ــ الأول : كثرة الكنى كثرةً فاحشةً في أسماء الأُسرات في "جبل لبنان الشمالي". خلافاً لكلّ مانعرفه من المنطقة الشاميّة إجمالاً، التي تشيع فيها النسبة إلى المِهَن .

ــ الثاني : أن هذه الكُنى في أسماء الأُسرات فيها تأتي غالباً جداً بصيغة (أبي . . .).

لكنّنا قد نجد كلمة (أبي) نادراً جداً أيضاً في غير "جبل لبنان الشمالي". مثال ذلك أُسرة (أبي رعد) ، التي نجدُها في بلـدة " بْزيْزا "من قضاء "الكورة" في الشمال ، وأيضاً في بلـدة

"الدّامور" الساحليّة الجنوبية مسيحيّتيَن ، لكننا نجدُها في بلدة "شمسطار" في "سهل البقاع" شيعيّة .

ومنها أيضاً أُسرة (أبي راشد) التي نجدها في بلدة "بَجْدرفِل" بقضاء "البترون" الشمالي ، وأيضاً في بلدة "بِسْري" بقضاء "جزّين" في "جبل عامل" .

وبمزيدٍ من البحث قد نجدُ حالاتٍ مُشابهة . ومع ذلك ، فإن هذه الحالة تبقى نادرةً جدّا بالقياس إلى المئات المنسوبين إلى (أبي . . .) في "جبل لبنان الشمالي" . لذلك فإنه ما من فائدة من البحث عن أمثلةٍ إضافيّة .

(٤)

وتفسير تينك الحالتيَن الشاذتيَن سهلٌ جداً . وذلك بافتراض أنّ الأُسرتين هما أصلاً من "الكورة" و"البترون" ، نزحتا إلى منطقتَي "جزّين" و"البقاع". والحركة السُكانيّة بين أنحاء ما هو اليوم لبنان السياسي أمرٌ معروف ، له أسبابه العُنفيّة غالباً. حيث سرعان ما قد يتحوّل النازحون إلى ما يتناسب مع الوعاء الديني لوطنهم الجديد . ولعلّ أنموذج أُسرة أبي رعد مثالٌ على ذلك .

بهذا البيان نصِلُ إلى تحديد إشكاليّة البحث بالسؤال التالي :

ما هو السّرّ الكامن في هذه الخصوصيّة العجيبة ؟

لماذا لسنا نجدُ كلمة (أبي) غالبةً في أسماء الأُسرات إلا في "جبل لبنان الشمالي" ؟

(٥)

الجواب خبيءٌ ، ولا ريب في ذلك عندنا ، في التاريخ الخاص للمنطقة ، وبالتحديد في التبدّلات السُكانيّة الجذريّة التي خضعت لها المنطقة غير مرّةٍ في ماضيها البعيد والأقرب . فنقلتها مرّةً بعد مرّة من حالٍ إلى حالٍ غيره .

فمن المعلوم ، أولاً، وكما في كلّ حالة تبدّل سكانيّ مُماثلة ، أنّ بصماته : (أي التبدّل) لا تضيع نهائيّاً من صفحة الجماعة ، بل تبقى، وإن مُتنكّرة بهيئةٍ أو بغيرها. حيث سيكون على المؤرخ الانساني الحاذق أن يقرأها ، ثم أن يضعها في موضعها الدّلالي المناسب .

من هنا فإنّ علينا أن نُلِمّ بتلك التبدّلات السُكانيّة المتوالية ، لثقتنا بأننا سنجِد بينها ما سوف يهدينا إلى حلّ إشكاليّة البحث .

وعليه نقول على سبيل تحقيب تلك التبدّلات :

(٦)

١ ــ إنّ هذه المنطقة " جبل لبنان الشمالي " كانت ، قبل إدخالها في "دار الإسلام" بالفتح ، على حالةٍ ممتازةٍ من

الازدهار . خصوصاً المنطقة الساحليّة منها ، حيث ظهرت المدينة المُثلّثة Tripolis ، التي تُعرف اليوم باسمٍ مُحرّف "طرابلس" ، ومدينة Biblos "جُبيل" اليوم ، التي تُعَدّ من أقدم المُدُن المسكونة في العالَم ، وتُنسبُ إليها إنجازاتٌ حضاريّة ، بات بعضُها ذا صفةٍ عالميّة فيما يُقال . إلى جانب قُرىً وبلدان كثيرةٍ منتشرةٍ على الساحل والهضاب المُسامتة .

٢ ــ ثم أنّ الفتح الإسلامي أدّى ، تدريجاً أحياناً ، إلى حالة هروبٍ جماعي لسكانها الأصيلين باتجاه المنطقة الرّوميّة المُجاورة . شهدنا مثلها في عامّة أنحاء البرّ الشامي إجمالاً. لكنّ سكان منطقة "لبنان"الجبل وساحله لجأوا في هُروبهم إلى السُفُن، قاصدين السواحل الروميّة القريبة . مستفيدين من خبرتهم في الإبحار، التي كان الفاتحون يفتقرون إليها.

هكذا خلت المنطقة من السكان أو كادت ، بينما بقيت معالمُها الماديّة (المُدُن والقُرى) سالمةً تماماً . الأمر الذي انتهى إلى حالة قطْعٍ تاريخي كاملة باتّة مع كلّ ماضيها، قطعاً أُنموذجياً شاملاً. بحيث انغلق بابٌ على مسارٍ ومسرحٍ تاريخي ، لينفتح بابٌ آخر على مسارٍ ومسرحٍ مختلفٍ عن سابقه كلّ الاختلاف. وذلك أمرٌ غائبٌ لدى اللبنانويين (libanist) الذين

لم ينفكّوا عن العمل على الارتفاع بتاريخ مشروعهم السياسي حضارياً إلى بعض الشعوب التي سبقت الفتح الإسلامي.

في هذا السياق خلا قلبُ "جبل لبنان الشمالي" ، أي ماهو اليوم قضائي "كسروان" و"جبيل" ، من السكان تماماً . لايعمره إلا النُّسّاك والزّهاد وأهل العرفان . بحيث اتخذ منه شعراء التصوّف رمزاً للتّنسُك والبُعد عن الخلق ، وطلباً لحياةٍ خالصةٍ للعبادة ، مقطوعة العلائق بالخلائق . ممّا لا نزال نجدُ آثارَه في أدبيّات المُتصوّفة ، من ابن الفارض إلى بهاء الدين العاملي .

٣ ــ لكنّ هجرةً سُكانيّةً كبرى ، كانت قد خرجت من "الكوفة" حوالي السنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م ، لتنزل ، فيما نزلته ، "جبل الظنيين" في أقصى شمال الجبل ، هي نفسها المعروفة اليوم باسم "الضِنّيّة" ، على الهضاب المواجهة لمدينة "طرابلس" من شرقيّها ، ــ هذه الهجرة بدأت حركةً سُكانيّةً معاكسةً باتجاه الامتلاء . تلك هي الهجرة الهمدانيّة الكبرى (نسبةً إلى شعب همْدان اليماني الحضرمي) ، التي نزلت نواحي عدّة من بلاد "الشام":مدينة "حمص"و"الغوطة" الدمشقيّة ونواحي"بعلبك" . وكان منها مَن نزل منطقة البحث،أي "جبل لبنان الشمالي" . لتبدأ منها حالـةٌ سكانيّة متدحرجة . استولدت وما تزال تاريخاً،استمرّ يُنتج

ويتفاعل حتى اليوم . ممّا فصّلنا عليه الكلامَ تفصيلاً في كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريّا .*

٤ ــ ذلك أنّ أُولئك الهمدانيين الحضارمة ما لبثوا أن هبطوا من الأعالي إلى مدينة "طرابلس" الخالية ، لكن السّالمة مادياً ، كغيرها من بلدان الساحل ، بعد أن ارتفع عنها التهديد الرومي البحري ، بنهوض بحريّةٍ إسلاميّةٍ قويّة ، عطّلت تأثير البحريّة الرُّوميّة . ومع الوقت نهضت المدينة بإمارة أُسرةٍ من الأُمراء العلماء من بني عمّار الطائيّين (٤٣٤ـ٤٩٤هـ/١٠٤٢ ـ١١٠٠م) . حيث باتت موطناً لجملة إنجازاتٍ حضاريّة ــ ثقافيّة متكاملة (سياسيّة، تنمويّة، ثقافيّة) . بحيث يمكن حُسبانها درّة الزمان في ذلك الأوان .

٥ ــ في آخرالقرن السادس هـ/أوائل القرن الثاني عشر م هجّرالغُزاةُ الصليبيّون أهل "طرابلس" جماعيّاً ، فلجأوا بجموعهم إلى أقرب الجبال إليهم . وهكذا امتلأ "جبل لبنان الشمالي" بالسكان كما لم يمتلئ من قبل . حيث حاولوا إحياء ما قصمته صروف الزمان . وفي هذا السياق من المُتغيّر السُكّاني الجديد برز في نواحي"كسروان"و"جبيل" وماوالاهما عددٌ من العلماء والأدباءوأهل القلم،ممّن يمكن اعتبارهم استمراراً لنهضة "طرابلس".

٦ ــ في أوائل القرن الثامن هـ / الرابع عشر م شنّ العسكر المملوكي، والذين تحالفوا معه، حملةً عسكريّةً هائلةً على أهل "كسروان" و"جبيل" ونطاقهما ، انتهت إلى تهجير أكثر الناجين من أهلهما إلى المناطق المجاورة شرقاً وجنوباً . ولم يبقَ منهم غير باقيةٍ كبيرةٍ نسبيّاً ، منحتهم الدولة الأمان بعد أن حال أمرهم وانكسرت شوكتهم .

من بعد تقلّبت الاحوال بـ"جبل لبنان الشمالي".فسيطر عليه التركمان فترةً قصيرة . ليُغادروه سريعاً باتجاه المناطق الساحليّة الدافئة . وعلى الأثر بدأت هجرةٌ واسعةٌ إليه من أعاليه الشماليّة ، حاملةً جماعاتٍ مسيحيّة ، كانت قد لجأت في الماضي إلى ماهو اليوم قضائي "زغرتا" و "إهدن" . مُستفيدةً من حالة الفراغ السُكاني التي نشأت بتأثير التهجير القسري لأهليه الشيعة الحضارمة الأصل .

(٧)

في ختام هذا السياق العُنفيّ المتحرّك بدأت حالةٌ سُكّانيّة جديدة: الجماعات المسيحيّة تتكاثر بمزيدٍ من الهجرة إلى منطقتي "كسروان" و "جبيل"، وطبعاً بالتكاثر الطبيعي أيضاً. في حين أن البقيّة الباقية من السُّكان الأصليين تتناقص ، بالتأثير العملاني

والمعنوي المُتمادي لنكبتهم ، حيث سقطت فيها أعدادٌ كبيرة من الرجال، بالإضافة إلى الذين هُجّروا على أثر المعركة ، أو الذين اضطروا اضطراراً إلى الهجرة منهم بعدُ ، بتأثير انهيار وضعهم السياسي ــ الاجتماعي . أو يتنصّرون شيئاً فشيئاً . وهم الأكثر فيما تدلُّ عليه الدلائل . ومع ذلك بقي الشيعة الأكثر عدداً في الجبل حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

(٨)

بعد هذا البيان الضافي، الذي وقفنا فيه على المحطّات الأساسيّة من التبدّلات السكانيّة الجذريّة في منطقة البحث ، وحيث خضنا في تحوّلاتٍ عميقةٍ علقتْ فيها بالتوالي أثناء ثماني قرون من الزمان ، ـ بعد ذلك أظن أن القارئ اللبيب قد بات آهلاً لأن يلمس ملامحَ حلِّ إشكاليّة البحث. فتبين له علّةُ انتشار"أبي" حصراً بين أسماء الأُسرات في "جبل لبنان الشمالي" دون غيرها .

ذلك أنّه بات في وسعه أن يرى ، أنّ في قلب تلك التحولات المُتوالية، سواءٌ حيث كانوا مُحرّكاً أساسيّاً لها ، أم حيث كانوا موضوعاً لأعمال ومساعي غيرهم ، ــ في قلبها تلك الجماعة الحضرميّة ، التي نزلت مُبكّراً الأعالي الشمالية لـ "جبل

لبنان الشمالي"، ثم عمرت ساحلَه المُسامت للجبل قروناً، ثم أُلجئت إلجاءً إلى قلب الجبل نفسه، لتنتهي مِزَقاً متفرّقةً في أنحاء ما هو اليوم "لبنان" السياسي. مع بقيّةٍ غيرقليلةٍ منهم بقيت في الجبل .

كما أنّه ، بعد أن عرف أن في قلب التحولات كافة تلك الجماعة الحضرميّة ، بات في وسعه أن يرى أنّ (أبي) الشائعة في أسماء أُسرات الجبل نفسه ، التي مُنحت الأمان وبقيت في الجبل ، ليست إلا (أبا) ، أو اختصاراً (با) الحضرميّة ، الذائعة حتى اليوم في أسماء أُسرات "حضرموت" ، لكن بعد أن تكيّفت مع مواصفات اللهجة المحلّيّة ، التي تنحو إلى إمالة حرف الألف في النطق . وهي حركةٌ لا وجود لها في الفصيح . فحُلّ الإشكال بكتبها في اللغة المُتفاصحة على ما هي عليه اليوم ، أي (أبي) .

(٩)

هكذا نصِلُ إلى نتيجةٍ واضحة قويّة من شقّيَن :

ــ الشّق الأول : إنّ الاتساق التام بين جغرافيا انتشار الحضرميين الأخير في "جبل لبنان الشمالي" ، قبل أن يتمزّق نسيجُهم السُكاني في مختلف أنحاء " لبنان" السياسي ، مع بقيّةٍ

كبيرةٍ منهم ثبتت فيه ، مثلما يحصل في كلّ حركةٍ سُكانيّة ، ــ وبين جغرافيا الانتشار الحصري لكلمة (أبي) في أسماء الأُسرات في الجبل نفسه ، لدليلٌ قويّ جدّاً على أن الظاهرتين كلتاهما وجهان لجغرافيا ــ تاريخيّةٍ واحدة . ومؤشّرٌ في غاية الجلاء على أن مَن بقي منهم في الجبل لم يكُن بالقليل . بعد أن منحتهم الدولة الأمان ، واطمأنّت إلى أنّها قد كسرت شوكتهم ، ولم يبقَ ثمّةَ من خشيةٍ سياسيّاً منهم . ولكنّها، طبعاً ، لم تنتزع منهم خصوصيّتهم باتخاذ (أبي) في أسماء أُسراتهم .

ــ الشّقّ الثاني: إنّ الكلمة (أبي) ، حيث تكون في اسم الأُسرة ، لدليلٌ لا يقلُّ قوّةً على أصلها الهمْداني الحضرمي .

(١٠)

وكما يكون حال كل جماعةٍ مغلوبةٍ على أمرها ، بدأ أولئك الشيعة ، الحضرميوا الأصل ، يتحولون شيئاً فشيئاً إلى دين الغالب سكانياً. ومن الإمارات الباقية من ذلك ، أنّ الأسماء المسيحيّة الطّابع نادرةٌ جداً في الأسرات التي تحمل في اسمها كلمة (أبي). أحصينا منها عُجالةً : (أبي طنّوس) (أبي غنطوس) (أبي حنّا) (أبي ضومط) (أبي أنطون) فقط . الأمر الذي من الممكن تفسيره بسهولة ، فالأسماء ليست دائما ثابتة . بينما نجدُ

بالمُقابل ، مثلاً ، أُسرة (أبي حيدر) . وهو اسمٌ ذو مغزى غير خفيّ ، يدلُّ على هُويتها الدينيّة التاريخيّة . فرعٌ منها تحوّل إلى سُكنى قرية "طليا" في "سهل البقاع". يحمل اسم (أبو حيدر) . فكأن (أبي) تأبى أن تستوطن غير "جبل لبنان الشمالي" .

وفي المقابل عشرات الأسماء الحياديّة على الأقل، منها: أبي نعمة، أبي رزق، أبي سمرا، أبي ياغي، أبي موسى، أبي تامر، أبي شاهين، أبي سعد، أبي عبدالله ، أبي خليل، أبي عيسى ، أبي سعد، أبي خليل، أبي راشد، أبي منصور، أبي نعمة، أبي نادر، أبي فاضل ...الخ الخ . وهي إجمالاً عربيّةٌ أصيلة ، أو شائعةٌ بين العرب . تدلُّ على أصلها البعيد .

(١١)

ولا يستبعدنّ القارئُ ثباتَ (أبي) حيث هي على مَرّ الأزمان. فكم في اللغات الدّارجة اليوم في الأقطار العربيّة من كلمات آتيةٍ من تاريخها البائد البعيد . كلماتٌ قبطيّة / فرعونيّة في "مصر"، وأُخرى من السريانيّة الشرقيّة أو الغربيّة في "الشام" و "العراق" . فضلاً عن اللغتين الآراميّة والأشوريّة الباقيتَين محكيّتيَن حتى اليوم في بعض القُرى السوريّة. والأمثلة على ذلك كثيرة. يعرفها جيّداً ويعمل عليها أهلُ الاختصاص .

الفصل الثاني

أسماءٌ غير مألوفة لأُسراتٍ في سهل البقاع

(توطئة)

ثمة ظاهرةٌ نادرةٌ في أسماء أُسراتٍ كثيرة تنتشر اليوم في أواسط "سهل البقاع" دون سواه ، حيث بلدان كثيرة أبرزها : "شمسطار" "بيت شاما" "بدنايل" "تمنين الفوقا" "تمنين التحتا" "رياق" "علي النهري" . مع استثناءٍ وحيدٍ بأنّه خارج السهل، سنقف عليه في مطاوي البحث الآتي .

تلك الظاهرة هي ندرة النسبة إلى المهنة فيها ، مع أنّها الأكثر في أسماء الأُسرات بأنحاء بلاد "الشام" ، كما عرفنا ممّا فات آنفاً . وفي المقابل كثرةٌ غير مألوفة وحصريّةٌ في أسماء أُسراتها لِما هي في الأصل من أسماء الأفراد : (حيدر) (حاج سليمان) (حيدر أحمد) (السيّد قاسم) (الحاج دياب) (الحاج أحمد) (الحاج حسن) (ملحم) (منذر) (سلمان) (زين) (شحاده) (حسن قاسم) (علي حسن) (علي قاسم) (علي حسن) (علي ابراهيم) وهلم جرّا.

بُغيتنا في هذا البحث أن نكشف السرّ الكامن وراء هذه الظاهرة .لأنّ ما من شيءٍ يحصلُ بهذا النحو إلا لسببٍ خاص .

(١)

هذه ظاهرةٌ غير عاديّة باعتبارَين :

ــ الأوّل: بخلوّها تماماً من النسبة إلى المهنة ، مع أنّها هي الغالبة على أسماء الأُسرات في المنطقة الشاميّة إجمالاً .

ــ الثاني: بأنّ الأسرات تحمل ما هو أصلاً من أسماءٌ لأفراد . الأمر الذي قد يحصل حيناً لسببٍ أو غيره . لكنّنا هنا أمام ظاهرة عامّة أو شبه عامّة ، لسنا نعرف لها مثيلا في مناطق أخرى ، خصوصاً أنها تحمل أسماء مُحدّدة بدقّة : (علي حسن) (علي إبراهيم) (السيّد قاسم) (حسن قاسم) . . الخ ، الأمر الذي يدلُّ على أنّها بأصلها كانت أسماء أفراد . مامن ريب في أن الظاهرة ترجع إلى سببٍ ما . ثم ما من ريب أيضاً في أن السبب المكتوم كامنٌ في التاريخ الخاصّ لأهل المنطقة.الأمرالذي يدعو المؤرخ الإنساني إلى أن يبحث عن خبيئها حيث كامنة .

(٢)

وأوّل ما يجب الوُقوف عنده من عناصر تاريخها ، بل هو بالأحرى عندنا مفتاحه ، أنّ المنطقة التي باتت من بعد منازل تلك الأُسرات (عدا بلدة "شمسطار" في السفح الشرقي لجبل "لبنان" ، بالإضافة إلى بلدةٍ أُخرى خارج السّهل من جنوبه

اسمها"جديدة يابوس"، باتت اليوم من بلدان"الجمهوريّة السوريّة" ، لكنّ أهلها هم من أُسرة (حيدر أحمد) الشيعة اللبنانيي الجنسية) ــ تلك المنطقة كانت من قبلُ ، منذ قديم الأزمان ، بُحيرةً واسعةً ، تمتدُّ غرباً من بُعيد مدينة "بعلبك" شرق السهل ، إلى منطقة "عمّيق" في غربه ، وبلدة "عنجر" / "عين الجُر" في جنوبه ، وسفوح جبل "لبنان" في شماله . أي أنّ صحن "سهل البقاع" كلّه كان منطقةً واسعةً غامرةً خاليةً من السكان ، تكثرُ فيها الأقصاب / منابت القصب ، التي يُستفاد منها في نسج الحُصُر وبعض الأواني المنزليّة وما إليها . وحتى وقتٍ قريب كانت المهارات ذات العلاقة بهذا الانتاج شائعةً بين ربّات البيوت في المنطقة .

(٣)

التغيير في صورة المنطقة بدأت بأن أقدم الوالي في "دمشق" / نائب السلطان المملوكي على الشّطر الأسيوي من الدولة المملوكيّة ، الأمير سيف الدين تنكز الحُسامي (ولي: ٧١٢ـ٧٤١ هـ/١٣١٢ ــ ١٣٤٠) على استصلاح البحيرة . بأن اشترى أراضيها من بيت المال ، ثم حفر فيها أنهراً كثيرةً ترمي إلى نهر"الليطاني"،حتى صفّى الماء من أراضيها. و"**عمُرت قرايا ماينيف على عشرين قرية. وحصل للناس بذلك نفعٌ عظيم**" .

على حدّ ما قال الجغرافيٌّ / البلدانيٌّ المعاصر أبو الفدا في كتابه الشهير (تقويم البلدان) . ومُذ ذاك بدأ وسط السهل يعمُر بسرعة بالقُرى والبلدان. ومنها طبعاً تلك البلدان التي باتت من منازل تلك الأُسرات ، ذات الأسماء التي رأينا فيها تلك الظاهرة التي استحثّت الباحث ابتغاء تفسيرها .

(٤)

هذه القطعة ــ المفتاح من تاريخ المنطقة البعيد تطرح سؤالَيَن :

ــ الأول : من أين أتى ذلك الدّفق السكاني الكبير الذي مصّر وعمرَ بسرعة بالناس تلك المجموعة الجديدة من القُرى ذات العدد ؟

ونحن نفترضُ في صيغة هذا السؤال أنه إنّما "أتى" إتياناً إلى المنطقة ، يعني من خارجها، لسببٍ موضوعيّ هو أنّ التكاثر السكاني الطبيعي، الذي هو حصيلة زيادة نسبة المواليد على الوفيات، لم يكُن آنذاك بالحجم الذي يكفي لظهور المادّة البشريّة ، التي أنشأت وعمرت تلك المجموعة العديدة من القرى في الزمن القصير .

ــ الثاني: وبالتّبع ، ماهي علّة تلك الظاهرة الشّاذّة غير المألوفة في أسماء أُسراتها .

(٥)

في الجواب نقول :

ما من ريبٍ عندنا في أن السبب في كلتا الظّاهرتيَن إنما يرجعُ إلى حركةٍ سُكانيّة كبيرة ، حصلت في الزمان والمكان المناسبيَن . بحيث قادت إلى نتيجتيَن مُتلازمتيَن :

ــ الأُولى : هجرةٍ جماعيّةٍ لمجموعةٍ كبيرةٍ من البشر من وطنهم الأصلي ، ومن ثَمّ نزولهم منطقة البحث دون سواها.

ــ الثانية : نمطٍ حادٍّ من القطْع التاريخي الباتّ للمهاجرين مع البُنى الاجتماعيّة التي كانت قائمةً في أوطانهم الأصليّة ، نال البُنيةَ الأُسريّةَ الجامعة . واستلزم ظهور بُنىً اجتماعية بديلة . نقرأها اليوم في تلك المجموعة من الاسماء غير المألوفة . بدون فرْض ذلك القطع الحادّ ، ما من سبيلٍ إلى حُدوث تلك الظاهرة الغريبة .

(٦)

ذلك أنّ من المعلوم للعارف أنّ قطْعَ البشر مع الوطن/ الأرض، هو قطْعٌ بالقوّة نفسها مع تاريخهم وبُناهم الاجتماعيّة الخاصّة ، بما فيها من مضمونٍ اجتماعي وسياسي ، بل حتى الثقافي أحياناً أو جزئيّاً . فالأرض ــ الوطن هي الوعاء التاريخي

الخاصّ لأيّ جماعةٍ بشريّة . ما أن ينكفئ الوعاء ، بالقطْع مع الوطن ــ الأرض ، حتى يندلق ما فيه ، ويخسر صفته وطاقته الجامعة .

(٧)

أظنّ أنّ القارئ العارف اللبيب، الذي رافقنا في الفصل السابق ، سيتحرّك ذهنه فوراً باتجاه اجتياح منطقتي "كسروان" و"جبيل" المجاورتيَن وما والاهما ، وما أودى إليه من تقتيلٍ وتهجيرٍ واسعيَن ، نال القسمَ الأكبرَ من سكانهما . ذلك الحدَث الذي بدأت فصوله تتوالى منذ السنة ٧٠٥هـ ./١٣٠٥م ، واستتمّتْ فصولاً في السنة ٧١٢هـ /١٣١٢م بالهزيمة الكاملة لأهليه بعد مقاومةٍ بطوليّة ، ومن ثَمّ بالهجرة الإكراهيّة التي نالت الناجين منهم . أي في السنة نفسها التي ولي فيها الأمير تنكز منصب نائب السلطان/الكافل على القسم الأسيوي من الدولة في "دمشق" . ومن ثَمّ تدفُّق المهاجرين من المنطقة التي أصابها الاجتياح . حيث نال "سهل البقاع" النصيب الأكبر منهم كما قُلنا آنفاً . وعلى الأثر بدأ الأميرُ تنكز مشروعه التنموي الذّكي ــ السياسي (بالمعنى النبيل للكلمة) باستصلاح وسط "سهل البقاع" كما عرفنا . ومن ثَمّ عمرانه السريع بعشرين قرية دفعةً واحدة أو

بدفعاتٍ مُتقاربة. مامن ريبٍ عندنا في أنّ عُمّارها كانوا حصراً ، وعلى الأقلّ غالباً ، من الذين هبطوا "سهل البقاع" هاربين من أهوال الاجتياح الذي نزل بهم وبأوطانهم .

(٨)

فلنُلاحظ أن ماأقدم عليه الأمير غريبٌ جدّاً على ماأُثر من السلوكيّات المملوكيّة، التي لم يؤثَر عن أُمرائها سوى البطش والاستيلاءالشّره على الثروة ومصادرها،خصوصاًالأرض الزراعيّة.

فلماذا أنفق تلك النفقات الكبيرة على شراء بقعة البُحيرة الواسعة واستصلاحها، ليضعها في خدمة الناس دون مقابل ؟

السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا :

هل نحن أمام أُنموذجٍ مختلفٍ نادرٍ من أنماط أُمراء الحكم المملوكي، ميزتُها العقل السياسي بما ينفع الناس ؟

أم هل نحن أمام صُدفة تاريخيّة ، التقت فيها زمنيّاً همّةُ الأمير النبيل باستصلاح المنطقة ، مع الهجرة الكبرى لأهل "كسروان" و "جبيل" ؟

أم أن همّته كانت يقظة ضمير على الفظائع المهولة التي ارتكبها قومه بحقّ أُولئك الضحايا دون ذنبٍ ارتكبوه ؟ فعمل هو على جبْر كسْرهم ، والتعويض عليهم، باستصلاح تلك البقعة

الشاسعة ، ومن ثَمّ إباحتها لهم ، لتكون البديل المُناسب عن وطنهم المفقود؟

نقول في الجواب : الله تعالى أعلم ! لأن السؤال عن النوايا . وما عالَم النوايا من شأن المؤرخ .

لكنّنا مانشكُّ في أن الأمير تنكز كان أُنموذجاً مختلفاً عن كلّ الذين نعرفهم من رجالات الدولة المملوكيّة في "مصر" و"الشام" في ذلك الأوان . ومن هنا وصفه المؤرخ الصفدي ، حيث ترجم له في كتابه (*أعلام العصر وأعوان النّصر*) ، بـ "**الأمير المُهيب العادل الفريد** " (لاحظ : "**الفريد**" = الذي لا مثيل له) . كما وعَرّف بإنجازاته العمرانيّة الكثيرة في أنحاء منطقة حكمه الشّاسعة . فأنشأ فيها المدارس والجوامع والمآذن والخانات والحمامات والأسواق .

(٩)

لكنّنا نلاحظ بشيءٍ من الاستغراب ، أنّ المؤرخ الصفدي لم يأتِ على ذكر عمل الأمير الرّائد الباقي في منطقة بحثنا ، بإضافته مسجداً إلى المقام التاريخي للنبي نوح عليه السلام في بلدة "كرك نوح" المُطلّة على المنطقة المُستصلَحَة ، ما يزال على ما أنهاه حتى اليوم . كما ما يزال رقيمٌ حجريٌّ على أحد جدران

المسجد شاهداً على مبادرته الحسنة ، على الرغم ممّا أُنزل بالرقيم من تشويه ، يبدو لنا مُتعمّداً ، ارتكبه مَن ارتكبه بعد وفاة صاحبه ، فيما يبدو ، ابتغاء التّعمية على عمله .

(١٠)

لذلك فإننا نرجح بقوّةٍ أنّ فكرة استصلاح بُحيرة "سهل البقاع" ، ومن ثَمّ إباحة أرضه المُستصلَحَة للمُهجّرين ، ليبنوا فيها القرى ويسكنوها،ولتغدو وطنهم الجديد،إنّما خطرت له وعمل عليها معونةً لأولئك المنكوبين على الاستقرار فيها آمنين،بعد أن خسروا كلّ شيء.أو،على الأقلّ،لقطع الطريق على التفاعلات السياسية التي يمكن أن تنشأ جراء التنكيل الوحشي بالسكان ، ولن تكون في صالح الدولة . بل ونحن نرجح أيضاً أنّ إقدامه ، مع أنّه يُمثّل بمنصبه الرفيع رأسَ الدولة التي أقدمت على قتل وتهجير أهل "كسروان" الشيعة لا لسبب إلا لأنهم شيعة ، ـــ إقدامه على بناء مسجدٍ لهم في قريةٍ شيعيّة السكان، هو أوّل مسجدٍ جامعٍ للشيعة في كلّ السهل ، إنّما يُكملُ ويندرجُ فيما رجّحناه من مقصده الحسن من الاستصلاح ويؤيّده . ولعلّه لذلك ولِما يُشبهه من أعمال وصفه المؤرخ الصفدي بـ"**العادل الفريد**" .

حقاً لقد كان الأمير تنكز رحمه الله حالةً نبيلةً فريدةً

بين أقرانه من الأُمراء المماليك في ذلك الأوان .

(١١)

بالعودة إلى إشكاليّة البحث نقول :

ما من ريبٍ في أنّه حين وقعت الهزيمة الماحقة بأهل "كسروان" وما والاها، بعد المقاومة البطوليّة الطويلة لاجتياح وطنهم ، قد خرجت جماعاتٌ كثيرةٌ منهم هائمةً على وجوهها ، تطلبُ أيَّ أرضٍ تسعُهُم. فكان منهم من سلك الطريق الساحليّة، مُتجنبين نزول أو عبور أنحاء "جبل لبنان الجنوبي" ، أي ما هو معروفٌ اليوم باسم "الشُّوف" ، لأنّ من أهله مَن كانوا ضمن العسكر الذي شنّ عليهم الحملات في"كسروان" و"جبيل"، وضلَعَ فيما ارتُكب فيهما من تقتيلٍ وتهجير. إلى أن استقر بهم المقام في أنحاء "جبل عامل" ، والأكثر في نطاق مدينتي"صيدا" و "جزّين". حيث تركوا آثارهم على طوبوغرافيّتهما، بإنشائهم قُرى وبلدان ، سمّوها بأسماء بلدانهم الفقيدة . سنقفُ عليها عن قريب إن شاء الله . ومنهم ، وهم الأكثر عديداً فيما يبدو ، انطلقوا هابطين باتجاه "سهل البقاع" المُجاور.

ثم ما من ريبٍ أيضاً في أنّ هؤلاء الهاربين باتجاه السهل كانوا من مجموعاتٍ صغيرة ، بقيادة ورعاية كبير الأُسرة ،

تسهيلاً لحركتهم في الممرّات الجبليّة الكثيرة التي يعرفونها جيّداً. وبهذه الصفة نزلوا منازلهم الجديدة في وسط "سهل البقاع" . وبها عُرفوا بين أهله .

(١٢)

فذلك،بالإضافة إلى انفراط عِقدهم الاجتماعي ، بالمُباينة الجمْعيّة لأوطانهم ، وما قد ترتّب على ذلك من خسارة الجامع العشائري أو الأُسري الأصيل الكبير، هو الذي قاد وأودى إلى تغليب اسم كبير المجموعة ، أو كبيرٍ من المجموعة القادمة ، بين السكان الأصليين . وبات ملازماً لهم بعد أن تكاثروا فيما بعد بالنمو الطبيعي، وغدوا أُسرات كبيرة كما هي عليه اليوم ، عمرَت حصْراً وسط "سهل البقاع" في الظرف الذي عرفناه . وما تزال حتى اليوم تحمل اسماء كبار تلك الأُسرات، الذين كانوا على رأسهم يوم نزلوا منازلهم الجديدة ، حتى بعد زُهاء سبعة قرون .

(١٣)

من هنا نعرف، بما لايقبلُ الرّيب ، أنّ الظاهرة موضوع إشكاليّة البحث ، ماهي إلا من الآثار الباقية الدّالّة على قطعةٍ ضائعةٍ وفي منتهى الأهميّة من تاريخنا . الذي يكتم الكثيرَ من الخفايا ، المُتنكّرة تحت مختلف العناوين والأشكال .

لكنّ هذه الظاهرة ومثلها لن تُفصح عن خبيئها إلا للمؤرخ المسكون بالحسّ الانساني. بينما لا تبدو للمؤرخ السُلطوي إلا أُموراً تافهةً، ليست تستحقّ أن يوليها شرفَ عنايته . لالسبب إلا لأنه يفتقر بشدّة إلى الحسّ التاريخي الحقيقي . فاقد الأهليّة لأن يُدرك أن الانسان العادي هو الصّانع الحقيقي للتاريخ. وأنّ السُلطة المُنفصلة ماهي إلا كائن طفيلي على حركته .

(١٤)

وإذن فما السبب في ظاهرة تلك المجموعة من الاسماء غير المألوفة ، التي ألفتت نظرنا بغرابتها ، حيث مجموعةٌ كبيرة من الأُسرات ، في منطقةٍ بعينها حصراً ، تمتاز جميعها بأنها تحمل ماهو بأصله من أسماء الأفراد ، الأمر الذي لا نعرف مثيله في أي منطقةٍ سواها ، ـــ ما السبب إلا أنّ أُصولها البشريّة كانت قد تعرّضت في ماضيها إلى حالة قطعٍ تاريخيّ نموذجيّة باتّة ، فصلتها نهائياً عن ذاكرتها الجمْعيّة الخاصّة ، وبالتالي أنهت إلى الأبد البُنى الاجتماعيّة التي كانت قائمة . وهذه هي الحالة النموذجيّة التي تلجأ فيها جماعةٌ إلى ترميم ذاتيّتها باعتماد آليّاتٍ جديدة ، تتناولها من وضعها الجديد . الذي عرفنا أنه كان عبارة عن تشكيلاتٍ صغيرة برآسة كبيرها . وهكذا درجت

أو درج الناس من حولها على تمييزها عن غيرها باسم كبيرها ، أو كبير منها ، حين قدِمتْ وطنها الجديد . ومع الزمن تنامت وباتت أُسراتٍ كبيرة ، لكنّها احتفظت ، أو احتفظ لها الناسُ من حولها ، باسمها الجديد كما لاتزال . وكم لذلك من أمثال .

(١٥)

يبقى الوقوف عند حالةٍ نراها شاذّةً أيضاً ، بالنظر إلى نتيجة البحث . بيدَ أننا بالقراءة التاريخيّة سنرى أنها حالةٌ عاديّةً ، تندرج في الإشكاليّة نفسها. وتستدعي مزيد بحثٍ وتأمّل ، عسى أن تكشف لنا المزيد من الخبايا .

نعني بهذه الإشارة أُسرة (حيدر أحمد) التي ينزل أكثر أبنائها اليوم في "جْدَيدَة يابوس" . وهي قرية صغيرة تحتلُّ بقعةً فقيرة بمواردها الطبيعية الأساسيّة ("يابوس" ، آراميّة : يابس . إشارةً إلى أنها ماحلة. وللمقارنة: "كفير يابوس": القرية اليابسة) ، هي اليوم ضمن أرض "الجمهورية السوريّة" ، عند المعبر الحدودي بين "لبنان" و"سوريا" لمَن يسلك الطريق إلى "دمشق"، يبلغ عدد سكانها الألف نسمة تقريباً، كلهم من أُسرة (حيدر أحمد) ، وكلهم يحملون الجنسيّة اللبنانيّة . مع ضرورة ملاحظة وجود عائلاتٍ متفرّقةٍ من الأُسرة نفسها في الضاحية الجنوبية

لـ "بيروت" ، وفي بعض القرى اللبنانيّة وسط "سهل البقاع" .

والحقيقة أنّنا بعد التّحرّي الشخصي من مُعمّري أبناء الأُسرة ، لم نظفر بمعلومات عن تاريخ وسبب نزولها هذه البقعة دون غيرها ، مع مواصفاتها التي لاتُغري بعيشٍ طيّب . لكن المقطع الأول لاسم منزلهم الحالي "جْدَيدَة" ، بالإضافة إلى جنسيّة سكانها اللبنانيّة ، يدلّان على أنّ القرية حديثة التمصير نسبيّاً .

والذي يخطر بالبال بعد البحث والتأمّل ، أنّ الأُسرة كانت ممّن نزل أولُ منطقة وسط "سهل البقاع" ، شأن غيرها من الأُسرات الكثيرة النازحة من "كسروان" وجواره . بشهادة وجود بقيّةٍ منهم حتى اليوم في قرى سهل" البقاع " الاوسط . ثم كان أن نزح القسم الأكبر منها إلى منطقة "جديدة يابوس" بتاريخٍ لايرقى إلى أعلى من تأسيس دولة " لبنان الكبير" سنة ١٩١٨م . حيث مُنح سكان السهل نفسه الجنسيّة اللبنانيّة التي ما تزال الأُسرة تحملها . شأن غيرهم من سكان الدولة الجديدة . وأنّ سبب نزوحها عنفيٌّ على الأرجح ، بحيث ألجأها إلى التخلّي عن سُكنى السهل الخصيب الغني بالمياه ، لتنزل تلك المنطقةَ الفقيرةً بكل المعاني، ولتُمصّر فيها قرية "جديدة يابوس" حيث ما تزال .

(١٦)

نذكر أيضاً ، بمناسبة وحدة المُعطى التاريخي ، أُسرة (الحاج حسين) في قرية " زغرين " في أعالي جرود منطقةٍ تابعة لقضاء مدينة "الهرمل" شمال "لبنان". كان عدد سكانها ، حتى وقتٍ قريب ، يزيد قليلاً على الألف نسمة . أغلبهم من أُسرة (الحاج حسين) ، والباقون من أُسرة (سُجُد) .

والقرية ، بمواصفاتها الطبيعيّة ، تُذكّرنا بمواصفات "جديدة يابوس" إجمالاً. لكنّ "زغرين" تمتاز عن "جديدة يابوس" بمساحة نطاقها العقاري الشاسعة ، بما فيها من وديان عديدة غنيّةٍ بمصادر المياه ، وعلى شيءٍ من الخصوبة . يُستفاد من زراعتها بالحبوب . بالإضافة إلى المراعي الجبليّة الشاسعة التي تسرح فيها قطعان المواشي .

ولقد شهدتْ القرية في العقود الأخيرة حركة هجرة واسعة ، اتجه قسمٌ منها إلى "بعلبك" وآخرُ إلى الضاحية الجنوبيّة لـ "بيروت" .

وفي "بعلبك" اليوم تجمّعٌ كبيرٌ من أُسرة (الحاج حسين)، تحتل ثكنةً عسكريّةً مهجورة ، كان الفرنسيون قد أنشأوها أثناء الانتداب . حيث يعيشون حياةً بائسةً .

(١٧)

نُرجّح أن "زغرين" قريةٌ حديثة التمصير نسبيّاً ، لأننا لا نجدُ لها ذكراً في المصادر القديمة كافة . وأن سكانها هم أيضاً من النازحين من "جبل لبنان" في الظرف نفسه الذي يدور حوله هذا البحث . وبالتحديد من قرية "زغرين" في قضاء "المتن" . وأنهم ، لسببٍ ما لانعرفه ، اختاروا في هجرتهم الصعودَ باتجاه الأعالي في الشمال ، بدلاً عن الهبوط إلى "سهل البقاع"، أو باتجاه الجنوب سالكين الطريق الساحلي . وفي منازلهم الجديدة مصّروا قريةً سمّوها على اسم قريتهم الفقيدة . وذلك سلوكٌ مألوفٌ ممّن ينزحون من أوطانهم ، تعبيراً عن تعلّقهم بها ، وتعويضاً عاطفيّاً عن فقدانهم إياها . سنرى نظيرَه بنحوٍ أجلى وأشمل في مطاوي الفصل التالي .

وفي إقليم "الريحان" ، من "جبل عامل" قريةٌ تحمل اسم "زغرين" أيضاً ، لعلّ الذين مصّروها هم أيضاً من النازحين من رصيفتها التي في "المتن" .

الفصل الثالث

باريش/Paris، طلّوسه/Toulouse

طيردبّا/Tyr de bay

(١)

إن موقع "جبل عامل" في جنوب "لبنان" بين "الجليل الأعلى" شمال "فلسطين" ، وبين وادي "الأُردنّ" و"جبل لبنان الجنوبي" ، جعل منه مصبّاً لمؤثرات سياسيّة وسكانيّة جمّة ، كان لها أكبر الأثر على تاريخه .

ما يهمنا منها الآن ما نقرأه في أسماء بلدانه المنسوبة إلى اللغات المُسمّاة (ساميّة) ، بين عبريّة وآراميةٍ وعربيّة ، بالإضافة إلى أسماء أوروبيّة الأصل منها. كلٌّ منها أثرٌ باقٍ من حقبةٍ من الحِقَب التي توالت على الجبل أثناء القرون الخالية .

ذلك ما أغرى الباحثين ومايزال بوضع مختلف التسجيلات والمصنفات على أسماء بلدانه ومواقعه ، مشفوعةً أحياناً بوصفها وبذكر شيءٍ من تاريخها وأعلامها .

(٢)

لسنا نملك تحقيباً دقيقاً للشعوب المُسمّاة عند الغربيين

ومَن تأثّر بهم بـ الـ (ساميّة) (وهي بالأحرى من شعوبٍ أصلُها من " شبه الجزيرة العربية " ، تفرّقت فيما حولها ، قبل هذه اللغة العربيّة الحجازيّة) ، توالت على "جبل عامل" وساحله .

فرعٌ من الكنعانيين ، عُرفوا بالفينيقيين ، بسطوا سلطانهم على الساحل الغربي لـ"البحر الأبيض المتوسط "، حيث ازدهرت مُدُنٌ عديدةٌ ، تعاطت التجارة البحريّة . ومن هذا الطريق بنَتْ صلاتٍ واسعةً مع الساحل الافريقي المقابل .

أمّا الجبل فقد وقع قسمٌ منه مؤقتاً تحت تأثيرٍ سكاني قادم من "الجليل الأعلى" ، من ضمنه عناصر يهوديّة ضئيلة نسبيّاً .

على أنّ أوّل عمرانٍ حقيقيٍّ له حصل في وقتٍ من الأوقات بفضل إحدى الهجرات اليمانيّة الكثيرة إلى "الشام" ، هي هجرة شعب (عاملة) اليماني . كان من بديع حضورها وأثره أن منحته اسمه الباقي حتى اليوم .

(٣)

من المفارقات التاريخيّة أن شعب (عاملة) اليماني، الذي كان له الفضل ، بهجرته الكثيفة إلى "جبل عامل" ، في امتلائه سكانياً، لم يلبث أن غدا بحركةٍ سكانيّة معاكسةٍ السببَ

في فراغه .

ذلك ما حصل بالفتح الإسلامي لـ "الشام" إجمالاً ، حيث القبائل العربيّة المُتنصّرة ، ومنها (عاملة) ، تبعت خُطى سادتها الروم المهزومين باتجاه "الأناضول"، بعد أن خسروا كلّ المعارك الأساسيّة التي خاضوها مع الفاتحين المسلمين ، وسقطت دُرّة دولتهم "دمشق". هكذا فرغت حواضرُ "الشام" إجمالاً من سكانها. ولم يبقَ فيه إلا بعض سكان القُرى المعمورة بمزارعين من الشعوب التي كانت قد عمرته في الماضي ، من آراميين وأشوريين . ما نزال نجدُ آثارَ بعضهم في أسماءغير قريةٍ من قُرى "سورية"الجمهوريّة ، بل مازال أهلها يتكلمون إحدى اللغتين .

(٤)

في هذا السياق التاريخي الجديد ، وبسبب الهجرة شبه الشاملة لشعب (عاملة) ، عانى "جبل عامل" من حالة شبه فراغ سكانيّ ، استمرّت من بعدُ مدّة خمسة قرون تقريباً . إلى درجة أنّنا لانجدُ في كل الكُتُب المعنيّة بالبلدان، حتى القرن ٦هـ/١٢م ، ذكراً لقريةٍ منسوبةٍ إليه . إلا قريتيَن أتى على ذكرهما بلدانيٌّ ، عاش في القرن ٤هـ/١٠م قريباً من المنطقة وعرفها جيداً ، تحملان اسما آراميّاً يدلّ على عراقتهما ، هما "كفركيلا" و"مجدل

سِلِم" . بالاضافة إلى مجموعةٍ كبيرةٍ غُفل الاسماء من المزارع الصغيرة .(المقدسي:أحسن التقاسيم/١٨٨) .

(٥)

المُتغيّر السكاني الثاني باتجاه الامتلاء، حصل في "جبل عامل" بـ (فضل) الصليبيين . الذين كان لاجتياحهم "القدس" ، وما ارتكبوا فيه من فظائع مهولة ، تأثيراً هائلاً على المنطقة برمّتها . فهجّت الناس مرعوبين من أنحاء "الأردنّ" و"فلسطين" ، باتجاه أقرب الجبال إليهم . هكذا امتلأ "جبل عامل" بالسكان امتلاءً يفوق بكثير سابقَه قبلاً بهجرة (عاملة) إليه . ومع أنّ الصليبيين لحقوهم إلى موطنهم الجديد ، وبسطوا سلطانهم عليه وعليهم . لكنهم إذ ذاك كانوا قد تخلّوا عن السياسة التطهيريّة التي أعملوها في "القدس" ، وباتوا بحاجةٍ لمَن يعمل لهم ، فيستثمر الأرض ويُسدّد الضرائب لحسابهم ، إلى ماهنالك من وجوه علاقة السُلطة بالناس .

(٥)

في هذا السياق حصل شبهُ سباق بين المُحتلّين وبين ذلك التجمّع الظرفي من الناس ، الذين حملتهم الحرب وأهوالها على الهجرةِ من أوطانهم التاريخيّة،ـ سباقٌ على إنشاء وتمصير

البلدان والقُرى في أوطانهم الجديدة . بحيث أنّ الرحالة ابن جُبير ، الذي اجتاز "جبل عامل" من جنوبه إلى غربه ، من "تبنين" إلى "عكّا"، سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، أي بعد زُهاء نصف قرن من احتلال الصليبيين إياه ، ـ وصف طريقه بأنه " **كلّه على ضياعٍ متصلة وعمائر مُنتظمة** " (الرحلة/٢٧٣) . أي أنّ كلّ تلك الـ" **ضياع المُتصلة**" قد أُنشئت في مدةٍ قصيرةٍ نسبيّاً ، لاتزيد إلا قليلاً على نصف قرن .

وطبعاً كان المحتلّون يُسمّون مايشيدونه بأسماءٍ من لغتهم الفرنسيّة الغالبة بينهم، ومن ذاكرتهم على بلدانهم الأصليّة. بينما يُثبّت السكان المسلمون الجُدُد الأسماء الآراميّة القديمة على ما يُنشؤنه أو يُنمّونه من تجمّعات سكنيّة ، أو يسمّونها بأسماءٍ عربيّة .

(٦)

من هنا يجب أن يتوقّع القارئ اللبيب ماهو واقعٌ بالفعل، من كثرة الأسماء الفرنسيّة في القرى العامليّة ، التي كانت اللغة الغالبة بين الصليبيين ، مع أنهم كان بينهم إنكليز واسكوتلانديون وألمان وهنغاريون وغيرهم ، بالإضافة إلى أكثريّةٍ غالبةٍ من الفرنسيين .لقد كان أُولئك الغُزاة يعملون على ما يُسمّى الاستعمار

الاستيطاني ، الذي يقتضي أن يُثبّتوا وجودهم بإنشاء التجمّعات السكانيّة الخاصّة بهم . بحيث تكون لهم بلدانهم وحصونهم التي تحول دون الاختلاط بالمسلمين . ولكنّها تضمن لهم السيطرة عليهم .

أمّا المسلمون فكانوا بين الذين ثبّتوا الأسماء القديمة ، وبين مَن وضعوا لِما أنشأوه أسماءً عربيّة . لمناسبةٍ أو غيرها . وسنرى ذلك في الآتي من البحث.

(٧)

ومع كلّ ذلك ، ممّا هو أمرٌ ثابتٌ ومعروفٌ إجمالاً ، فإن باحثاً صنّف كتاباً على أسماء البلدان والقرى اللبنانية (ومنها طبعاً قرى وبلدان "جبل عامل") ، أصاب شُهرةً بين الناس وما يزال ، ربما لفرادته من حيث موضوعه ، بنى كتابه كلّه على فرضيّةٍ خلاصتها ، أنّ أسماء القرى والبلدان التي سردها في كتابه هي كلّها من أصلٍ سرياني . وأنّ عمله في كتابه يقتصر على تفسير الاسم ، بإرجاعه دائماً إلى أصله السرياني المزعوم . استناداً إلى صِرْفِ تشابهٍ لفظي بين اسم القرية اليوم وبين كلمةٍ أو جذرٍ ما من اللغة السريانيّة مهما تكُن أو يكون . أي دون أدنى اكتراث أواعتبار لمعنى الكلمتين في تلك العلاقة المزعومة .

حتى حيث يكون على غير نمط أسماء القرى والبلدان .

ذلك هو أنيس فريحه وكتابه الدّائر (معجم أسماء المُدُن والقرى اللبنانيّة).

الصفة المُعجميّة للكتاب واضحةٌ لا لَبس فيها ، وهي في عنوانه أمينـةٌ على المنهج الذي التزمه في كتابه . كما أنها تفسّر الغياب التامّ للعامل التاريخي في خطّة الكتاب .

لكنّ ذلك لايعني أبداً أن المنهج الذي التزمه فريحة بأمانةٍ في كتابه صحيح . وذلك لسببين :

ـ الأول:إنّ اللغة،بالاعتبار الألسُني،هي حالةٌ تاريخية، أو حالةٌ حصلت في التاريخ . ما من سبيلٍ إلى شرحها وبيان نسب كلماتها إلا من منظورٍ وبمنهجٍ ألسُني، يأخذ بالاعتبار حالات الكلمة في أطوارها، كما يأخذ بالاعتبار ظروف نشأتها. هكذا فإن اقتصار فريحه على البحث عن الأصل السرياني في كل الاسماء التي عالجها بكتابه ، ينطوي على فرضيّة خاطئة ، هي أنّ كلّ الذين جعلوا تلك الاسماء هم حصراً من المتكلمين باللغة السريانيّة. وهي فرضيّةٌ غلط ، كما بات واضحاً للقارئ . ونحن قدّمنا للبحث بمسردٍ تاريخي لـ "جبل عامل"، ابتغاء التوطئة لبيان العلاقة بين تاريخه وبين أسماء بلدانه وقُراه بتنوّعها البالغ .

ـ الثاني : إن اللغات المُسمّاة (ساميّة) استناداً إلى تصنيفٍ توراتي ، وهي في الحقيقة ترجع إلى اللغة أو اللغات التي كانت سائدةً قديماً في "شبه الجزيرة العربيّة" ، قبل أن ينتشر أهلها في الاقطار من حولها ، ـ هذه اللغات تتشابه كلماتها في جذورها لوحدة أصلها ما قبل اللغة العربيّة الحجازيّة . إلى درجة أنّه يصعب، وقد يستحيل ، إرجاع كلمةٍ هجينةٍ ، من نوع أسماء البلدان التي عالجها فريحة ، إلى لغةٍ منها بعينها استناداً إلى تشابه لفظي . والحقيقة التي غابت عليه ، أنّ العامل التاريخي في وطن الكلمة ، في حال استيعابه ، هو أقرب طريقٍ وأجدى وسيلةٍ إلى دراسة الكلمة دراسةً فيلولوجيّة مُقنِعَة .

والحقيقة أن فريحه يُثير استغرابنا إحياناً في إصراره العنيد على محاولة نسبة كلّ كلمة في أسماء القرى العامليّة إلى أصل سرياني ، حتى في حالات تكون فيها الكلمة من أصلٍ عربي أو فرنسي صريح لاريب فيه .

ومن الأمثلة النافرة لذلك ، فيما يخصُّ الأسماء من أصلٍ عربي صريح ، تعليقه على اسم قرية "كوثرية السيّاد" العامليّة بالقول : " السّيّاد قد تكون سريانيّة Sayyada معناها : المُطيّن من sada : طين " (!) . مع أنّ الكلمة عربيّة صريحة

دون ريب ، هي جمْعٌ على غير قياس لكلمة (سيّد) ، أُضيفت إلى اسم البلدة بمناسبة أنّ من سكانها بضع أُسرات من السّادة الاشراف . كما أنه يعلّق على كلمة (مارون) في عددٍ من أسماء القرى العامليّة ، بالقول إنها "من السريانيّة Maruna" . مع أن الكلمة فرنسيّة دون أدنى ريب .

والامثلة على مثل ذلك كثيرةٌ جداً في الكتاب .

وإنني لأخشى خشيةً شديدةً أن يكون الرجل قد ارتكب هذا المركب الغلط متأثّراً بمؤثر ديني ـــ سياسي ، يميل إلى تمجيد اللغة السريانيّة بأيّة وسيلة ، وبيان حضور كلماتها الدائم الباقي على الألسُن ، على الرغم من انحسارها التامّ من الخطاب اليومي ، وانحصارها بالفعل في بعض الطقوس الدينيّة المسيحيّة المحليّة. وذلك مطلبٌ مشروعٌ وصحيحٌ في ألوان العاميّة الشاميّة. لكنّ الطريق الذي سلكه فريحه إلى بيانه هو الغلط .

حقاً إنّ الحبَّ يُعمي ويُصمّ .

(٨)

بناءً على كلّ ماسبق نقول :

من الممكن تحقيب الأسماء الدّائرة اليوم لبلدان وقرى في "جبل عامل" وساحله في عدّة مجموعات :

ـ المجموعة الأُولى ترجع إلى ماقبل التاريخ المكتوب.

ومنها مدينة "صور" الفينيقيّة ذات التاريخ السّحيق المجيد . كانت أيامَهم جزيرة تحمل اسم "صر" التي تعني بالفينيقيّة الصخرة ، لمكان الطبيعة الصخريّة التي بُنيت عليها المدينة. ومنها بلدتان تحملان اسم "برعشيت" ، وبلدةٌ ثالثةٌ اسمها "جبشيت" ، والبلدات الثلاث منسوبة إلى شيث بن نوح عليه السلام ، مثلها في ذلك مثل خمسة بلدان أُخريات ، تنتشر على الهضاب الممتدة على طول الساحل الغربي للبحر المتوسط ، كلّها ملحوقةٌ أسماؤها بـ "شيت". نظنُّ أنها جميعها من أعمال النبي شيث بن نوح عليه السلام الحضاريّة بعد الطوفان . ولنا على ذلك بحثٌ ضافٍ ، في كتابنا الماثل للطبع (*كرك نوح والقصة الحقيقيّة للطوفان*) .

(٩)

ـ المجموعة الثانية ترجع إلى الفترة التي سادت فيها الآراميّة . وهي قُرى ومزارع كثيرة . من إماراتها أن يبدأ اسمها بكلمة "كفْر" وهي كلمةٌ من جذرٍ سامي تعني مزرعة ، موجودة في أكثر اللغات المُسمّاة (ساميّة) . أو بـ "مجدل" وتركيباتها : "مجدليون" "مجيدل". وهي كلمةٌ من جذر سامي أيضاً ، توجد في

السريانيّة والعربيّة ، بمعنى قصر، برج ، مكانٌ عالٍ مُشرف. بالاضافة إلى ما كان منها بصيغةٍ آراميّةٍ واضحة : "عيناتا" ، "تفاحتا" ، "جنّاتا" ، "البابليّة" المُحرّفة عن "بابيلا" بالآراميّة : بابُ الله . وفي غوطة "دمشق" بلدٌ يُسمّى "بابيلا" .

(١٠)

وبموازاة المجموعة الآراميّة زمنيّاً ، ثمة بضع قرى تحمل اسماًعبرانيّاً .

منها كل ما تكون البادئة في الاسم . كلمة "آبل" : "آبل السّقي" " آبل القمح" . . . الخ. وهي أيضاً كلمة من جذر سامي. نجدها بمعانٍ متقاربة في العربيّة والعبريّة والسريانيّة والأمهريّة ، تعني مايقرب معنىً من جذر (زرع) في العربيّة . بالإضافة إلى "جُبع" بمعنى التّلّ . وثمّة اليوم في إقليم "الشوف"بـ "جبل لبنان" الجنوبي بلدٌ اسمه "جُبع الشوف" ، تمييزاً له عن "جُبع" العامليّة . كما جاء في التوراة ذكرُ بلدٍ بـ " فلسطين " اسمه "جُبع بنيامين" .

ومنها "قَدَس" في أطراف "جبل عامل" ، وكانت قبل الصليبيين حاضرته . وعُرفت قديماً باسمٍ آرامي أو عبراني : "قادس" أو "قادش" باختلاف اللغات . وبالاسم نفسه عدّة بلدان

في "فلسطين" و "الجمهوريّة السوريّة" . كما أنّ اسمها يرِدُ كثيراً في تاريخ الكنعانيين والاسرائيليين . وكانت " قدَس" قديماً من أعمال "صور" ، ثم أُلحقت بـ "فلسطين" . وسنة ١٩٤٨م غدت تحت الاحتلال الاسرائيلي وما تزال .

(١١)

ــ المجموعة الثالثة ترجع إلى فترة الاحتلال الصليبي (٥٠٤ــ٦٨٨ هـ/١١١٠ــ ١٢٨٩م) التي قلنا أنها الفترةُ التي انتفض فيها "جبل عامل" سُكّانياً . وحيث حصل ما قد يُشبه السباق على إنشاء وتمصير القُرى والبلدان ، بين الذين التجأوا إلى الجبل من حوله وبين المُحتلّين الصليبيين . أثناءها جرى تمصير أكثر التجمعات السُكانيّة القائمة اليوم في الجبل . وطبعاً كان المسلمون يُسمّون مايستحدثونه بأسماءٍ عربيّة غالباً،الأمر الذي استمرّ حتى بعد انجلاء الاحتلال . بينما يُسمّيها الصليبيّون بأسماءٍ فرنسيّة ، اللغةُ الغالبةُ بين الصليبيين .

(١٢)

الأسماء العربيّة لاتخفى .

فمنها المجموعة المنسوبة إلى أسماء أشخاص من مثل: "العبّاسيّة""المالكيّة""المحموديّة" "المروانيّة" "المنصوري" "المحاربيّة"

"النجاريّة" "الحارثية" "حسّانيّة" "حمّاديّة" "الداوديّة". . . . الخ. وهي كثيرة .

ومنها كلّ مايبدأ اسمها بـ "مراح" (حظيرة المواشي) "مراح أبو شديد" ، "مراح الجاموس" ، "مراحةالحباس" . أو بـ "مزرعة" أو بـ "مقسم" (جزء من مزرعة بعد تقسيمه بين الورثة) أو بـ "مرج" أو "خِرْبَة" / "الخرايب" / " الخريبة" أو "عين" أو "برج" أو "بستان" . وهي كثيرة أيضاً .

ومنها ماتعكس المواصفات الطوبوغرافيّة أوغيرها لمكان القرية الناشئة منها: "المطلّة" "المنارة" "البيّاضة" "ضهر البيّاضة" "أبو الأسود" "المطمورة" ..... الخ .

وعلى كلّ حال ، فإنّ الاسماء العربيّة لاتخفى كما قلنا. على الرغم من صاحبنا أنيس فريحة ، الذي لم يعترف بعربيّة أيٍّ منها ، وظلّ يُصرّ دائماً على البحث عن جذرٍ سريانيّ مُشابهٍ لاسم البلد، حتى لِما هو عربي صريحٌ لا لَبْسَ فيه (!) .

(١٣)

في هذا السّياق من البحث ، ألفت نظرنا مجموعةٌ من أسماء البلدان العامليّة ، تنتشر على التلال المجاورة لمدينة "صيدا" صعوداً حتى "جزّين " . موضع الملاحظة هنا أنها تُزاوج

أسماءَ قرى ماتزال في "كسروان" و"جبيل" وما والاهما . هي "داريّا" "صربا" "الصوّانة" "قتالة" "القرية" "القصيبة" "القطين" "كفَرحتّى" "الهلاليّة" "يانوح" . ومنها ربما "بنت جبيل" ، التي يبدو أنّها سُميت بهذا الاسم لمناسبةٍ غير خفيّة . وهو اسمٌ عربيٌّ صريح . يبدو أنّ الذين مصّروها من المهاجرين من "جبيل" .

من المؤكّد أن هذا التشابه الواسع لم يحدث صُدفةً . بل إنّه يُخبئ حقيقةً تاريخيّة . نرى أنّها كامنة في أنّ تلك القُرى هي ممّا أنشأه المُهجّرون من "كسروان" و "جبيل" وما والاهما . سمّوها بأسماء أوطانهم الفقيدة تعبيراً عن الحنين إليها . ونحن عرفنا ممّا فات أنّ قسماً من أولئك المُهجّرين قد سلك الطريق الساحليّة ، وانتهى بهم المسير إلى "جزّين" وما والاها . حيث أنشأوا تلك القرى .

(١٤)

أمّا الاسماء الفرنسيّة منها ، فليس من العسير على العارف المُدقّق أن يميزها. إمّا بشبهها بأسماء بلدان فرنسيّة . وإمّا بوجود كلمة فرنسيّة في الاسم ، وإنْ تكُ قد جرى تحريفها لتُناسب النطق بالعربيّة . وإمّا بجِرسها الفرنسي ، الذي لا يخفي على العارف بهذه اللغة .

فمن الأول ، أي التشابه بين اسم بلدٍ عامليّ وآخر فرنسي ، وهو من باب ميل النّازح إلى أن يُعبّر عن الحنين إلى وطنه بهذه الوسيلة .

من أصرحه: "باريش" Paris و"طلّوسة" Toulouse ، وكلتاهما من المُدُن الفرنسيّة المشهورة . على الرُّغم من أنيس فريحة ، حيث قال أن اسم "طلّوسه" تحريف Talyuse، معناها: صغار، أحداث. وقد يكون تحريف Tallusha: لزج ، طيني، صبي صغير. كما قال على "باريش" كلاماً مشابهاً . وكلّه مبنيّ على تشابهات لفظيّة ، نقدناها وبينّا خطلها فيما فات . وفي "فلسطين" بلدةٌ اسمها "طلّوزة" .

ونحن ما من شكّ لدينا بوجود أسماءٍ كثيرةٍ جداً من هذا القبيل ، أي الفرنسيّة الأصل ، في "جبل عامل" .

لكنّ متابعة البحث باتجاه استقرائها استقراءً تامّا ، يقتضي معرفةً مفصّلةً بأسماء عشرات آلاف البلدان والقرى في "فرنسا" . ومن ثَمّ مقارنتها اسماً اسماً بأسماء بلدان عامليّة عامرة أو دارسة . ومن الواضح أنّ ذلك مطلبٌ لايستحقّ بذل مثل هذا الجُهد الكبير ، ما دام لن يُضيف إضافةً أساسيّةً إلى نتائج البحث .

ومن الثاني ، أي وجود كلمة فرنسيّة في اسم البلد العاملي ، حتى وإن يكُن قد حال أو جرى تحريفه ليناسب النطق بالعربيّة الدّارجة .

فمنه كلمة "طَيْر" في اسماء ثماني بلدانٍ عاملية : "طير فلساي" " طيرحرفا" "طير دِبّا" "طير زبنا" (بات اسمها اليوم "الشهابيّة") " طير سمحات" "طيرعديس " "تربيخا" (اصل اسمها "طير بيخا") طرشيحا (اصل اسمها "طير شيحا"). وكلّها لا نشكّ في أن أصل كلمة "طَيْر" فيها جميعها هو " tyr "، وهو الاسم الدائر بين الأوروبيين لمدينة "صور" . وربما منها أيضاً "طورا". وليُلاحظ القارئ العارف هنا أن كل هاتيك القـُرى كانت أيام الصليبيين في نطاق إمارة "صور" الصليبيّة .

ولتنظير المثال نقول ، أنّ في نطاق مدينة "اللاذقيّة" قريتان تحملان اسماً صليبيّاً صريحا . إحداهما "سنجوان" ، أصل اسمها Saint jean وهو اسم مُنظّمة الرهبان المُقاتلين المعروفة لدى مَن يُلمّون بالحركة الصليبيّة . والثانية "الشبطليّة" ، أصل اسمها Hospitallier وهو اسمٌ لفرعٍ من المُنظّمة نفسها ، يُعنى بتمريض جرحى المُقاتلين ومرضى الحجاج .

ومن غرائب أنيس فريحة التي لا نهاية لها ، أنّه قال

على البادئة " طر " ، في أسماء هاتيك البلدان السبعة ، أنها من السريانيّة ، بمعنى حظيرة. مع أنه فشل فشلاً ذريعاً في تقديم أي تفسيرٍ للاحقة بأسمائها على قاعدته العجيبة . لأنه لم يلتفت إلى أنّها من أصلٍ فرنسي .

ومن أمثلة الأنموذج الثالث ، أي الكلمات ذات الجِرْس الفرنسي في أسماء بلدانٍ عامليّة ، وهي الأكثر والاسهل ملاحظةً للعارف باللغة الفرنسيّة .

فمنه الصوت الأنفي (on) ، وهو من خصوصيّات اللغة الفرنسيّة .

ومن أمثلته: "أرزون" Arzon ، "أرنون" Arnon ، عنقون" Ankon ، "عيترون" Ytaron ، "مارون" Maron ، "فرون" Phron ، "يارون" Yaron.

ومنه الصوت الممتدّ آخر الاسم . من أمثلته : "دوبيه" Dubay ، "حيتوله" Ytulay ، "باتوليه" Batulay ، "رقلية" Riklay ، "سينيه" Synay .

هنا من الضروري تنبيه القارئ الحصيف، إلى أن الاسماء المكتوبة بالفرنسيّة ، التي زاوجنا بها أعلاه الاسماءَ الحاليّة للبلدان بالعربية ، ليست إلا تقديريّةً منّا ، استناداً فقط إلى

الجِرْس المّشابه للكلمة كما تُنطق باللغة الفرنسيّة .

(١٥)

تسهيلاً للبحث نقول :

إنّ كل الأسماء غير الآراميّة أو العربيّة أو العبريّة الأصل ، في بلدان "جبل عامل" ، هي على الأرجح جدّاً ، وبالأحرى على نحو الحصر، فرنسيّة الأصل .

منها "رشكنانيه" " "شدغيت" "شلفيت" "إرمت" " إقرط " "باصين " "برتي" "بسري" "بطيشيه" "جنسنايا" "جويّا" "دردغيّا" "نفّاخيّة" "جميجيم" "شبريحا" . . . الخ . وهي كثيرةٌ جدّاً . وبابُ البحث عليها مفتوحٌ لمَن يرغب .

ولنلاحظ أنّ هاتيك الاسماء ذات جِرْسٍ فرنسي غير خفيّ . من السهل جداً على العارف أن يكتب أسماءها باللغة الفرنسيّة ، لتأتي مناسبةً تماماً لقواعد النُطق بهذه اللغة . فضلاً عن أنّ بعضها ظلّ أهلها على المسيحيّة حتى وقتٍ قريب . ومنها "دردغيّا" و "نفاخيّة" .

(١٦)

ولعلّ من الإمارات المُساعدة أيضاً في هذا البحث العسِر، أن ظاهرة القُرى الكثيرة الخراب الدّارسة في "جبل عامل"،

التي قد نجِدُ ذكرها في الكُتُب ، ونفتقد أعيانها على الأرض ، إلا

من بعض الآثار أحياناً ، وهي كثيرةٌ كثرةً غير عاديّة في أنحائه ، ـــ تلك القُرى إنما ترجع ، فيما نُرجّح ، إلى أنها ممّا نزحت عنه أخلاف وبقايا الصليبيين إثر التحرير، وهجرة مَن استطاع الهجرةَ منهم عائدين إلى وطن آبائهم . ولم يكُن في وسع نسبة التكاثر السكاني الضئيلة ، بين أهل "جبل عامل" الفقراء،أن تفي بعمرانها ، وأن تغطي الفراغ السكاني الكبير ، الحاصل بهجرة جموع الصليبيين المُفاجئة . فكان أن خربت قُراهم وبلدانهم واندرست ، ولم يبقَ منها إلا أسماؤها الضائعة وآثارها ، التي تدلُّ على تاريخها العمراني .

منها :

"ادمت" قريةٌ خربة من قرى الشِّعْب .

"راج" قريةٌ خربة قرُب "يارون" .

" رندا " خراب في أرض" عيثا الشِّعب " .

"زنّار" خرابٌ غرب قلعة "دوبيه" . فيها آثار آبارٍ عميقةٍ وعمران .

"سمّوخه" قريةٌ خراب قُرب "بنت جبيل" .

" طَهْرّة " خراب قُرب "النبطيّة " .

"أطرا" قريةٌ لسنا نعرف أين كانت . إنّما يُذكر اسمها في بعض المصادر، بما يُفهم منه أنها كانت عامرةً لمُدة قصيرة بعد الصليبيين .

" دابل " قريةٌ خراب قُرب "طير دِبّا" .

"شلعبون" قريةٌ خراب بين "بنت جبيل" و "عين ابل" .

"رمشاي" قريةٌ خراب تتبع قضاء "جزّين" .

"رويس" خرائب جنوب بلدة "حولا" .

"ريشا" قريةٌ من قرى "الشّعْب" ، هي اليوم خراب .

وبمزيد بحث يمكن أن نُضيف أسماءً كثيرةً غيرها .

والظاهر أن بلدة "طيردبّا" Tyr de bay ، على الساحل المُجاور لمدينة "صور" ، ومنها اشتُقّ اسمها ، من القرى التي بقيت خراباً بعد النزوح الصليبي ، إلى أن نزلتها أُسرٌ مُسلمةٌ ، منها آل (مُغنيّة) التي قدمت من "الجزائر" ، فراراً من مُعاناتهم بالاستعمار الفرنسي ، فعمرتها . ثم مالبثت أن أنجبت فقهاء أجلاّء وأهل قلمٍ ومُجاهدين معارف . من كبار العلماء منهم الفقيه الجليل الشيخ حسين مغنيّة ، صاحب الدّور المُنيف في مُقارعة الاحتلال الفرنسي لـ "جبل عامل" ، المُغطّى تحت اسم الانتداب المعسول . وصاحب التصانيف الشيخ محمد جواد مُغنيّة.

ومن المجاهدين الشهيد عماد مُغنيّة ، تغمّدهم الله تعالى جميعاً برحمته .

(١٧)

في ختام الفصل يحسُنُ بنا أن نُضيف إلى أسماء تلك القُرى الدّارسة ، ما قد تُشيرُ إليه أسماءُ أُسراتٍ عامليّةٍ اليوم. يمكن وصفها (الاسماء) ، بشيءٍ من التّجوّز، أنّها (دارسة) هي الأُخرى . بمعنى أنّها صليبيّة الأصل . لكنّ أبناءها كانوا قد انقطعت صلتهم المعنويّة / الثقافيّة والعملانيّة بأوطان أجدادهم الأصليّة منذ أجيال. والأرجح أنهم طفقوا يتكلمون العربيّة بلهجتها المحلّيّة . بحيث أنهم بالنتيجة لم يعودوا يعرفون غير "جبل عامل" لهم موطناً .

هؤلاء عندما تحرّر "جبل عامل" من الاحتلال الصليبي ، بعد احتلالٍ دام قرنيَن من الزمان إلا قليلا ، لم يجدوا سبباً أو وسيلةً للعودة إلى أوطان أجدادهم البعيدين . بل ربما لم يعودوا يعرفون ما هي وأين هي أُصولهم بالضّبط .

لذلك فإنهم بقوا حيث هم ، واندمجوا بأهله . ونسوا كل ما يتعلق بتاريخهم الشخصي . ثم أنهم طفقوا بعد التحريريتحوّلون شيئاً فشيئاً إلى الإسلام، ويتسمّون بأسماءٍ إسلاميّة. وحدها أسماءُ

أُسراتهم ، التي احتفظت ، ومازال ، بلفظها المُحرّف ليُناسب نطقها بالعربيّة ولكن بجِرسها الفرنسي ، هي الدليل الوحيد الباقي حتى اليوم على أصلهم البعيد .

الفصل الرابع

تـتـار / مغـول

(١)

مَن هم أولئك الذين لم يكونوا شيئاً مذكورا ، ليسوا في حُسبان أحد . ثم إذا بهم ينهالون وعلى كل مَن حولهم وعلينا فجأةً من أقصى الشرق ، أواسط القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، قوةً عسكريّةً مهولة . اجتاحت دار الإسلام من مشرقها ، وصولاً إلى آخر المنطقة الشاميّة وأبواب "مصر" . مُنزلين حيثما حلّوا من التقتيل والتدمير مالا تزال آثاره وتداعياته ماثلةً حتى اليوم بمختلف الأشكال ، لمَن يُحسن قراءتها ؟

(٢)

مسوّغ السؤال أنّ من المؤرخين، أخصُّ الغربيين منهم ، مَن يسمونهم (المغول) Mongols Mongolians . أمّا المسلمون منهم فيسمونهم (التتر) أو (التتار) . وذلك بنفسه إشكالٌ أو إشكاليّةٌ تستدعي البحث عن سببه ، ثم عن وجه الصواب فيه ، ومن ثَمّ مفاد ذلك على مستوى العملية التأريخية . خصوصاً وأننا قد ابتُلينا بهم، وباتوا بالرغم عنّا جزءاً من تاريخنا المكتوب . سواءٌ بوصفهم غُـزاة قتّلوا ودمّروا ، أم بوصفهم أرباب

دُول في غير قطرٍ من أقطارنا الإسلاميّة ، تحت مختلف الاسماء والعناوين : (إيلخانات) في "فارس" (٦٥٤ـ٧٤١هـ / ١٢٥٦ ـــ ١٣٣٩ ، (خاقانات) في "الهند" (٩٣٢ـــ١١٧٤ هـ/ ١٥٢٥ــ١٧٦٠م) ، (خانات) في شبه جزيرة "القُرم" (٨٢٣ ــ١١٩١ هـ /١٤٢٠ــ١٧٧٧م) .

وعلى كلّ حال ، فلنبدأ بالتعريف بكلٍّ من الفريقَين :

(٣)

أمّا (المغول) أو (المُنغول) فهم القوم الذين تجمع بينهم أنهم الذين يتكلمون اللغة المغوليّة . على كلامٍ طويلٍ بين أهل الاختصاص في اختلاف وتنوّع أُصولهم الرِّسّيّة / الإثنيّة .

كان (المغول) قبائل صغيرة متناثرة مُتنازعة ، قبل أن يوحّدها تيموجين/ جنكيز خان(١٢٠٦ــ١٢٢٧م) تحت إمرته ، ويمنحها وضعاً امبراطورياً عاصمته "قراقورم" في"منغوليا" ، ثم "خان بالق"(هي نفسها "بكين" عاصمة "الصين" اليوم). لكنّ دولته لم تُعمّر طويلاً(١٢٠٦ــ١٢٦٠ م). بل انقسمت بعده ثلاثة أقسام . القسم الذي ابتُلينا به منهاهو القسم الجنوب غربي الذي بإمرة ابنه (هولاكو). إذ وجّه جيوشه إلى دار الإسلام ، واحتلّ "بغداد" حيث قضى قضاءً مُبرَماً على الخلافة العبّاسيّة ، ثم أنه

اجتاح بلاد"الشام" واحتلّ"دمشق".وفيها بلغته وفاة أخيه الخاقان الاعظم للمغول (مونكوخان) . فرجع بمعظم جيشه المؤلف من المغول إلى عاصمتهم "قراقورم" في "منغوليا"، ليُشارك في انتخاب الخاقان الجديد. تاركاً مابقي من جيشه بقيادة أحد ضباطه المدعو (كيتوبوقا)، المعروف بين مؤرخينا باسم (كتبغا). هو الذي هزمه المماليك في معركة "عين جالوت" الفاصلة .

بالنتيجة نشـأ وضعٌ سياسيٌّ جديد في المنطقة إجمالاً ، حدوده نهر"الفرات". حيث بات منه وشرقاً تحت الحكم المغولي. ومنه وغرباً دولة المماليك ، بعد أن صعدوا على قاعدة انتصارهم العظيم في "عين جالوت" .

واليوم يعيش المغول في جهورية"منغوليا"،حيث يشكّلون أغلب سكانها ، وفي "روسيا"و"الصين" (منغوليا الداخليّة) ، حيث يتمتّعون بنمطٍ من الحكم الذّاتي ضمن الفيدراليّة ، وفي بعض أنحاء المنطقة المعروفة تاريخياً بـ "خراسان الكبرى" أو "ماوراء النهر" (يُسميها الغربيون ومَن تبعهم "آسية الوسطى") . ومنهم أقلّيّة (الهزارة) الشيعيّة الشهيرة في "أفغانستان"، ذات التّميّز في حضورها الثقافي والعملي . كما أن منهم أقليّة في شرق "أُوروبة" تُعرف باسم (الكماليك) .

(٤)

أمّا (التّتَر) أو (التتار) فهم من جملة الشعوب التركيّة (الطورخانيّة) . تتكلّم لهجةً من اللهجات التركيّة المتعددة . وبذلك تمتاز عن المغول الذين يجمع بينهم أنهم يتكلمون اللغة المغولية كما عرفنا . لغتهم الخاصة تنتمي للمجموعة اللغوية المُسمّاة بـ (الكيبجاك) (عندالعرب: القفجاق)، التي تضمّ اللهجات الأوزبكيّة والكازاخيّة والأذربايجانيّة والقرغيزيّة والتركمانية .

نُشير بالمناسبة إلى أنّ ابن خلدون يُسمي التتار بـ (التّغزغز). وهو اسمٌ غريبٌ غير معروف. نظنّ أنه ليس إلا تصحيفاً ، منه أو من النُّسّاخ ، لكلمة (القرغيز) ، وهؤلاء من جملة القوميّات التتريّة / التركيّة كما سنعرف .

كانت قبائل (التتر) التُّرك ، التي كانت قد دخلت في الإسلام قبل قرون ، بعد حروبٍ طويلة مع الفاتحين المسلمين ، ــ كانت تنتشر في سهوب "خراسان الكبرى" الواسعة . بين الهضبة الإيرانية و"روسيا" و"الصين" ، كما لاتزال أخلافُها . لكن بعد أن باتت اليوم دُوَلاً تحمل بأمانة أسماءها القبَليّة / الأقواميّة : " أوزبكستان" ، "كازاخستان " ، "قيرغيزستان" ، "طاجيكستان" ، "تركمانستان" وهلمّ جرّا .

(٥)

وعندما ظهر (تيموجين)/ جنكيز خان، ونجح في توحيد المغول، لم تجد الأقوام التتريّة أدنى صعوبةً في الانضمام لمشروعه السياس ــ عسكري . بل لعلّها تلقّته بكامل الغبطة والرضى ، وهي التي كانت تعرف جيّدا الثروات الهائلة التي تنتظرها إلى الغرب منها في بلاد "فارس" و"العراق". ولم يكونوا يستفيدون منها إلا ببيع أبنائهم وبناتهم لأهلها ، ليكونوا غلماناً وجواري في خدمتهم ، أو عسكراً في خدمة النظام الحاكم . لكنّهم كانوا،إذ يبيعونهم،يحصلون على الأقلّ على أثمانهم من النُّخّاس، كما ويتخلّصون من عبء إعالتهم . فضلاً عن أنهم ببيعهم يمنحونهم فرصةً جيّدة لعيشٍ رغيد ، وإن بصفتهم مملوكين ، بالقياس إلى الفقر الذي يُعانونه في ربوعهم .

والحقيقة أن جنكيز خان ، بالنظر إلى طموحاته ذات الطابع الامبراطوريّ ، وبالقياس إلى عديد قومه الضئيل نسبياً ، كان بحاجةٍ ماسّةٍ إلى العديد الهائل لجيرانه (التتر) . وما ندري ما هي التسويات السياسيّة ، ذات الطابع العسكريتاري ، التي جرت وراء الستار بين جنكيز خان ، وبين القيادات القَبَليّة / الأقواميّة التتريّة . ولكن من المؤكّد ، أنها انتهت بانضمام جموع

(التتر) الهائلة إلى الجيش ذي القيادة العُليا المغوليّة . كما أنّ من المؤكّد أيضاً أنّه كان بين كبار ضُبّاط الجيش اللّجب أعدادٌ غير قليلة من (التتر) . ممّن قد تلمع أسماؤهم الإسلاميّة أحياناً في نصوصنا التاريخيّة للفترة .

(٦)

أظنُّ أننا بهذا البيان الواضح قد بتنا ، وبات القارئُ معنا ، مالكين لعناصر تصوّرٍ يسمح لنا بأن نقول ماخلاصته :

ــ إنّ (التتر) المسلمين كانوا الغالبيّة الأعظم في الجيش الجرّار الذي اجتاح (دار الإسلام) من مشرقها ، مُنزِلاً به مانعرفه من تقتيلٍ وتدمير.

ــ إن(المغول) كانوا المُمسكين بناصية القرار السياسي، الكامن خلف الخطط والأعمال العسكريّة ، بوصفهم أصحاب المُبادرة ، وبصفتهم الكتلة البشريّة المُتقدّمة في رؤيتها السياسيّة ونظامها الملكي الانتخابي الصّارم . بالقياس إلى جموع (التتر) شبه البُداة ، الذين التحقوا ، أو بالأحرى أُلحقوا إلحاقاً ، بقرارٍ من القيادة المغوليّة ، لاعتباراتٍ لوجستيّةٍ بحتة .

هكذا ، فنحن عندما نرى المؤرخين المسلمين بالعربيّة يُسمّون الذين اجتاحوا عاصمة الخلافة "بغداد" وغيرها بـ(التتر) ، فلأنهم هم الذين رأوهم رأيَ العين يفعلون الأفاعيل فيها .

أمّا الغربيّون منهم ، فإنهم نظروا إلى أن الذين اجتاحوا ماااجتاحوه من " أُوروبا الشرقيّة " وغيرها كانوا بقيادةٍ مغوليّة . دون أن يكون في وسعهم التمييز بين (المغول) و(التتر)، لِما بين الاثنين من تشابهٍ في الصفات الجثمانيّة .

ثم أنهم لم يروهم يرتكبون مثل ذلك الذي ارتكبه (التتر) في"بغداد" وغيرها ، من أعمالٍ في الغاية من القسوة الوحشيّة . سجّلها مؤرخون مسلمون بكلماتٍ نادبة .

(٧)

وممّا يُكملُ هذا التّصوُّر لدينا عن تركيبة القُوى الغازية تحت القيادة المغوليّة، أن هولاكو، إذ كان يُحاصر "بغداد" ، اتصل بوسيلةٍ ما بالخليفة المُحاصَر المستعصم بالله ، عارضاً عليه الخروج للتفاوض ، آمناً على نفسه .

ولدى خروج الخليفة قِيدَ إلى خركاه (خيمةٌ تتريّة من جلود)، حيث وجد بانتظاره عدداً من فقهاء التتر بالأزياء التقليديّة للفقهاء ، طفقوا يُجادلونه بالكتاب والسُّنّة ، بما هو أشبه بجلسة مُحاكمة علنيّة للخليفة. تحاسبه على سلوكه ونمط حياته اللاهية، دون أن يكترث بالنُّذُر بالمخاطر المُحدقة بالمسلمين ، ولم يُعِدّ للدفاع عنهم عُدّته . بل مضى في حياته اللاهية ، مُنصرفاً إلى

ملذّاته، مع الحرص الشديد على أمواله ، فلا يُنفقها على شؤون الدفاع ، كما يقتضي منصبه الرفيع وموارده الماليّة الكبيرة . الأمر الذي يوجب عزله ، حتى لو اقتضى الأمر اللجوء إلى القوّة القاهرة . فكأنّ أُولئك الفقهاء التتر بهذه الأُطروحة كانوا يعملون على منح نمطٍ من الشّرعيّة لانضمامهم إلى المغول في حربهم على المسلمين. بل، ربما ، حتى يمنح شرعيّةً مّا للمغول الوثنيين . باعتبارهم عقوبةً من الله تعالى ، سلّطها على الخليفة المُنحرف، وعلى كلِّ الذين يتمسّكون بشرعيته .

وطبعاً كان ذلك المشهد إنما تمّ بالرضى والرعاية التّامّيَن من هولاكو نفسه.بشهادة أنه هو الذي منح الخليفة المسكين الأمان، ثم وفى له بما وعد. ومن الغنيّ عن البيان، أنّ هولاكو ، بوصفه القيادة العسكريّة والسياسيّة العليا للجيش ، كان الذي يملك حصْراً السُلطة والصّلاحيّة في الجبهة لهذا الإجراء ومثله .

بل إنّ القارئ اللبيب ، إذ هو يتأمّل مليّاً في عناصر ذلك السيناريو، قد يكتشف بسهولة ، أنّه كان ، جملةً وتفصيلاً، من بُنات أفكار هولاكو. الذي لابدّ أنّه كان يضع في حُسبانه احتمال أن يتعارض اجتياحُ دار الخلافة مع ضمير القسم الأكبر

من عسكره المسلم . الأمر الذي ، إن حصل ، سيكون له أسوأ الأثر على الحافز القتالي المعنوي للأكثريّة المسلمة من عسكره . فلجأ إلى ذلك التدبير البارع ليوجّه أذهانهم وضمائرهم بالاتجاه الذي يُناسبه . وذلك يدلُّ على دهاءٍ ما بعدَه دهاء .

(٨)

هذا السّرد أراه قد أوصلناعفواً إلى حصيلةٍ إضافيّة ، تُزيحُ وهماً شائعاً ، موضوعها الانتصار التاريخي للمسلمين في معركة "عين جالوت" .

الصورة الشائعة في الأذهان تُقدّم الحدَث بوصفه معركةً بين المسلمين والمغول . انتهت إلى نتيجةٍ غير مسبوقة، حيث ذاق المغول طعم الهزيمة لأوّل مرّة .

مع تسليمنا التامّ بالقيمة التاريخيّة للمعركة ، فإننا نرى أن من التبسيط وفقرالمعلومات أن يُقال أنّها كانت بين مسلمين ومغول . ذلك مُخلّ بالحقيقة . بل الحقيقة أنّها كانت بين فريقيَن، كلاهما للأسف من(التتر) المسلمين. المماليك الذين ترجع أُصولُهم إلى "خراسان الكبرى" / "ماوراء النهر"كان عامّتهم من (التتر)، وإن هم سُمّوا على لسان المسلمين بـ(التُّرك). ولا مُشاحَّةَ في الأمر، فمن المعلوم أنّ (التتر) هم من(التُّرك) ، على مابيّنّا قبل قليل .

يدلُّ على ذلك ما هو معروف أن الجمهوريين الأتراك ، بعد أن قضوا على الخلافة العثمانيّة ، طفقوا يتداولون عناصر دستور دولتهم الجمهوريّة الجديدة ، ومنها طبعاً اسم الدولة ، ــ فكان من الطروحات اسماً لها يُرجعها إلى الأصل العريق لشعبهم التتري . كأن يُقال ، مثلاً ، (الجمهورية التتريّة) . لكنهم ، بنهاية التداول، آثروا اسم "الجمهوريّة التركيّة "، ربما بسبب وجود تجمّعٍ سكاني تتاري كبير في "القفقاز" . هو الذي بات اليوم من الجمهوريّات المكوّنة للفيدراليّة الروسية ، تحمل اسم "جمهوريّة تتارستان" ، عاصمتها "قازان" .

(٩)

نقول كلَّ ذلك ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن قيادة الغُزاة يوم "عين جالوت" كانت بالفعل من (المغول) ، مُمثّلين بالضابط المغولي (كيتا بوقا) / (كتبغا) . الذي أوكل إليه (هولاكو) قيادةَ مَن بقي من جيشه في " دمشق " ، قبل أن يشدَّ الرِّحال مُسرعاً إلى العاصمة المغوليّة " قراقورم " . ليشارك في انتخاب الخاقان الأعظم الجديد، بوصفه أحد المرشّحين للمنصب الكبير الشّاغر.

لذلك فإنه اصطحب معه أكثرَ عسكره المغولي ، ربما

لأنه لم يكن يعرف على أي مستوى سيجري حلّ قضية خلافة الخاقان المتوفى. مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال الحاجة إلى حلٍّ عسكري ، أو إلى حلٍّ سياسي مُستندٍ إلى ميزان القُوى العسكريّ بين المتنافسين، كما سيحصل بالفعل بعد قليل.وذلك إثر وصول آخر الخاقانات المغول العظام المسمى(قوبلاي خان) إلى السلطة العليا . لكنه لم يستمر في منصبه سوى أربع سنوات (١٢٦٠ـ ١٢٦٤م).من بعده انقسمت الامبراطوريّةُ إلى أربعة أقسام.

ما من ريبٍ في أنّ(هولاكو) لم يترك خليفته في "دمشق" وحيداً بين جموع (التتر) الغفيرة . بل استبقى عدداً مناسباً من الضباط والعسكرالمغولي،حفاظاً على الحضور المغولي المعنوي ، بوصفهم المالكين والمُمسكين بالقرار السياسي ــ العسكري. لكنّ عماد القوّة الغازية ، التي قاتلت فيما بعد العسكر المملوكي في "عين جالوت" ، كانت ، ولا ريب أيضاً، من (التتر) المسلمين .

(١٠)

في ختام الفصل نُوردُ معلومة طريفة جداً، نراها تستحقُّ التسجيل لطرافتها . وإن لم تكُن ذات علاقة بعمود البحث وإشكاليته . لكنّها تُضيف معلومةً نادرةً لبعض ذيول الغزو المغولي لبلادنا. وهي من أوائل تسجيلاتي الكثيرة . يرجع تاريخُ

تسجيلها إلى زهاءنصف قرن من الزمان . كنتُ قد تلقّيتُها من أحد أساتذتي في "جامعة بيروت العربيّة"، يوم كنتُ أُعدُّ فيها لإجازةٍ في علمي الاجتماع والسكّان. رواها لي يوم لبّى دعوتي إياه لزيارة "بعلبك" ، والتّمتّع برؤية قلعتها العظيمة. فسارعتُ فوراً إلى تسجيلها لطرافتها ، كي لاتضيع من الذاكرة .

(١١)

خلاصة القصّة أنّ الأستاذ رحمه الله كان قد أُعير من جامعة "الإسكندريّة" إلى جامعةٍ في المنطقة المعروفة اليوم بـ "منغوليا الداخليّة" . وهي جزءٌ من "منغوليا" التاريخيّة . لكنها اليوم مقاطعةٌ ذات حكمٍ ذاتي في "الجمهورية الصينيّة" الفيدراليّة . سكانها من المغول . وفيها قبر (جنكيز خان) . وفي غربيّها أقليّةٌ كبيرةٌ من المسلمين ، تبلغ نسبتهم فيها إلى مجموع السكان ١٧% تقريباً ، بعضهم الأقلّ من الشيعة . تنتشر فيها المساجد .

وكما هو متوقّع ، قامت صلاتٌ ودّيّةٌ بين الأستاذ المسلم وبين بعض المسلمين هناك ، من تلاميذه وغيرهم . حيث عرف منهم أنّهم، وإن يكونوا معدودين اليوم من جملة(المغول)، بسحنةٍ مغوليّةٍ كاملة الأوصاف، لكنّ أُصولهم البعيدة تضربُ إلى أجدادهم العرب المسلمين، الذين قدموا من البلاد العربيّة .

وطبعاً كان هذا الكلام موضع تعجُّب وريبة الأستاذ .

في سبيل تأكيد دعواهم ، قالوا للأستاذ إنّهم يحتفظون بكنزٍ تاريخي ثمين يتصل بأصلهم العربي البعيد، هو عبارةٌ عن شواهد قبور أجدادهم الأولين العرب ، الذين قدموا من بلادهم . توالى أسلافهم مهمّة حفظها مدة قرون. لكنهم اضطرّوا أخيراً إلى نزع الشواهد عن قبور الأجداد، أثناء الثورة الثقافيّة في "الصين"، خشيةَ أن تعمد السلطات الصينيّة إلى إتلافها ، فيما أتلفته من التراث الصيني العريق . ومن ثَمّ عمدوا إلى إخفائها في مكانٍ حريزٍ مكتوم . لكنهم ، ثقةً منهم بشخصه ، لايُمانعون في إطلاعه عليها إن رغب .

قال الأستاذ ، إنّه ذُهل عندما رأى أمامه عشرات شواهد القبورالحجريّة،المرقومة باللغة العربيّة بأسماء أشخاصٍ، مشفوعةً بتواريخ وفياتهم ، ترجعُ جميعها إلى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . فعرف من فوره أنّ تلك القبور هي من فترة الغزو المغولي . وقدّر، بما لديه من خبرةٍ ومعرفة ، أنّ أولئك الدّفينين ماهُم إلا أُسارى ، ممّن اصطحبهم (هولاكو) إذ رجع إلى"منغوليا". ليتوفوا هناك بعد أن أنجبوا وتنامى نسلهم جيلاً بعد جيل . وهم أصل انتشار الإسلام في تلك البقعة القصيّة ،

التي لم تعرف دعوةً إسلاميّةً . لكنّهم لم ينسوا أصلهم البعيد ، بل وثبتوا على دينهم ، وأنشأوا المساجد وعمروها . كما أنهم احتفظوا بقبور أجدادهم طوال سبعة قرون ، إمارةً على هُويتهم الفقيدة . ولعلّها ما تزال هناك حتى اليوم .

الفصل الخامس

أيلا / إيليّا / إلياس

(١)

الكلمات الثلاث هنّ أسماءٌ لمُسمّى واحد . لكّنها أثناء حراكها في الزمان الطويل ، خضعت لمؤثّراتٍ ثقافيّة ، لغويّة / فيلولوجيّة بالتحديد ، نالت بعضَ الاسم فبدّلته . وبذلك آل أمرُها عندنا إلى أن باتت إشكاليّةَ بحث .

وسنُفصّل وجهَ الأمر، الذي جعل منها إشكاليّةً تحت العنوان العامّ لبحثنا بعد قليل .

الاسمان الثاني والثالث من مقطعين ، أولهما ثابت هو (إيل) بمعنى (ربّ) أو (إله). (ليس دقيقاً ما قيل أن معناها(الله) ، لأن هذا اسم علَمٍ لله الواحد عزّوجلّ وحدَه) . أمّا المُتغيّر فهو ، في (إيليّا)، (يا) . وفي (إلياس) ، التي أصلها (إيل ياس) ، (ياس) . أمّا الاسم الأوّل من الأسماء الثلاثة فله شأنٌ مختلف . سنقفُ عليه عن قريب . بعد الإشارة إلى أنّ التركيب نجده مقلوباً في اسم جدّنا (إسماعيل) / اسماع إيل : ربٌّ سميع .

على أن اللاحقتيَن كلتاهما بمعنى . تعنى المنسوب إليه . أي أن المعنى فيهما ، المُركّب من الكلمتين ، يُشبه كلمة (ربي)

بالعربيّة. غاية الأمر أن الأُولى منهما باللغة العبريّة ، أمّا الثانية فهي باليونانيّة .

فمن هنا نعرفُ أن كلمة (الياس) القرآنيّة ، إسماً للنبي أو الرسول المعروف ، الذي يتكرّر ذكره في التنزيل الحكيم ، هي من أصلٍ يونانيّ . شأن كلماتٍ كثيرةٍ غيرها . أكثرها دوراناً على الألسُن (درهم) (باليونانيّة : دراخما) ، و(دينار) (باليونانيّة : ديناريوس) . ما يدلُّ على صلاتٍ ثقافيّةٍ عريقةٍ جدّاً بين العربيّة واليونانيّة ، ترقى إلى عهودٍ سحيقةٍ غير مؤرّخَة . ذلك لأنّ لولا شيوع النّقديَن بين السكان العرب في شبه الجزيرة ، لَما دخلت الكلمتان بسهولةٍ إلى لغتهم ، كما لاتزالان .

(٢)

حسناً ، ولكنّ هذا الدّرس اللغوي/الفيلولوجي سيطرح السؤال الذي بات تقليديّاً في بحثنا :

كيف ولماذا دخل الاسمان تحت عنوان بحثنا ؟

ما هو السّرُّ التاريخيّ الخبيء فيهما ؟

في الجواب نقول : إنّ في "سهل البقاع" قريةٌ تحملُ اسم "النبي أيلا" . اسمها قادمٌ من وجود مقامٍ لهذا النبي فيها ، أيّاً يكُن اسمه من الثلاثة الاسماء ، شأن غير قريةٍ من قُرى المنطقة .

ما من ريبٍ في أنّ المقطع الثاني من اسم القرية ـ المقام: "أيلا" هو مُحرّفٌ من (إيليّا) ، طلباً لسهولة اللفظ ، كما هو شأنُ العامّيّة غالباً . أي أنّ اسمها الأصلي ، واسم دفين المقام ، هو "النبي إيليّا" . ولذلك ضربنا صفحاً عن ضمّ كلمة (أيلا) إلى الدّرس اللغوي الذي بسطناه أعلاه ، مع أنها جزءٌ من عنوان الفصل . وذلك بالنظر إلى أنّ كلمة "أيلا" ليست اسماً مستقلّاً ، يستدعي بحثاً خاصّاً . وأن ما قلناه وسنقوله على أصلِها (إيليّا) سيفي بالمطلوب .

ثمة ظاهرةٌ تستحقُّ الذكرَ بل التنويه. هي أنّ المقام مقصودٌ بكثافةٍ من سكّان الوسط المُحيط بالقرية بمُسلميه ومسيحييه على حدٍّ سواء . ولهم جميعاً فيه عقيدةٌ قويّة . بحيث يحتكمون إليه في نزاعاتهم وخصوماتهم . لاعتقادهم الرّاسخ بأن ما من أحدٍ يجروء على حلّف اليمين الفاصلة عند القبر ، ما لم يكُن صادقاً في قوله .

من هنا فإنّ مَن يدخل المقام ، خصوصاً في أيام نهاية الأُسبوع ، ما بين يومي الجمعة والأحد ، قد يجِدُ فيه مجموعةً من المسلمين ، إلى جنب أُخرى من المسيحيين ، يزورون نبيهم المُشتَرَك أو يُصلّون ، كلٌّ على طريقته . في جوٍّ من الانسجام

والتّلقائيّة . أظنُّ أنّها حالةٌ فريدةٌ لا ثاني لها ، في كلِّ ما نعرفه من المقامات الدينيّة في الدنيا .

ليس هذا فقط . بل إنّ من العجائب ذات العلاقة بالمقام ، أنّ المسيحيين يُسمّون صاحبَه باسمه القرآني : (إلياس) . في حين أنّ المسلمين يُسمونه باسمه اليوناني ، والمسيحي ضمناً : (إيليّا) ، وإنْ بصيغته المُحرّفة (أيلا) .

ممّا لاريب فيه عندنا، أنّ هذه الحالة بكامل مواصفاتها ، وبالخصوص تقديره المُشتَرَك من مسلمي ومسيحيي المنطقة ، لم تتجمّع وتتكامل على هذا النحوبالأمس القريب . بل إنّها ، دون ريب ، مُنغرسةٌ في أعماق التاريخ البعيد للمنطقة وأهلها ، الذي نظنُّ أنّه يرقى إلى آلاف السنين . الأمر الذي يستدعي المؤرّخ الانساني أن يُعملَ فيه آليّاته البحثيّة ، ابتغاء كشْف ما يكتمه من أسرارٍ خبيئة .

وعليه فسنبدأ بالوقوف على صورة صاحب المقام في النّصّيَن الإسلامي والمسيحي . لأننا نرى فيهما المفتاحَ الوحيدَ للبحث ، مهما يبعُدُ في الزمان . فيه ومنه تأسّست السلوكيّات المُشتركَة التي وصفناها . وكم لهذا في تاريخ البشر من أمثال . ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون .

وسنُبيّن أولُ الصورة الإسلاميّة ـ القرآنيّة ، لأنّها الأقربُ زماناً والمؤكّدة نصّاً . ونُغنيها بالمرويّات التاريخيّة والشّفويّة . ثم نُثنّي بالصورة المسيحيّة ـ الإنجيليّة ، مُعتمدين أوثقَها عندنا . مع الاستفادة من النصوص التوراتيّة .

(٣)

ورد ذكرُ صاحب المقام في القرآن العزيزمرتين باسم (إلياس) .

الأُولى في سياق إحصاء الذين توالوا بناء حركة الإيمان . فذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ومن قبلهم نوح . ثم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون . إلى :" وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين " (الأنعام/٨٥) . ويختم بذكر إسماعيل واليسع ويونس ولوط .

الثانية في سياقٍ مُشابه ، حيث أتى ذكره بنحوٍ أكثر تفصيلاً :" وإنّ إلياس لَمن المرسلين . إذ قال لقومه أفلا تتقون . اتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين" (الصافات / ١٢٣ ــ ١٢٦) .

والذي نستفيده من مُجمل هذه النصوص ، أنّ (إلياس) كان نبيّاً . لأن ذكره في الآيات الأُولى أتى في جملة ثلاثةٍ ثابتي النبوّة.

وإن اقتصر وصفهم في ختام الآية بـ "الصالحين".

لكنّه هو من بينهم خُصّ في الآية الأُولى من المجموعة الثانية بأنّه "من المرسلين".

نستفيد من مجموع هاتيك النصوص أمرين :

ــ الأول: أنّ (إلياس) كان نبيّاً صاحب رسالة. أي أنّه في الدرجة الوُسطى بين الأنبياء المبعوثين برسالةٍ جديدةٍ . أي بين مرتبة (أُولى العزم) ، الذين بدأوا بـ (نوح) عليه السلام . ويختصّون بأنهم حُمّلوا رسالةً وشريعةً أصيلتيَن جديدتيَن . ومرتبة مَن يُسمّون (أنبياء الفترة) ، الذين تقتصرُ بعثتهم على التذكيروالتأكيد والإحياء لِما كان قد بلّغه الرسول السابق صاحب الشريعة.

ـ الثاني: أنّه عملَ ، فيما عمل عليه ، على هداية الوثنيين الذي يؤلّهون الوثن المُسمّى (بعل) . ومن هنا لامهم القرآن العزيز على أنّهم يدعون بعلاً ويذرون أحسنَ الخالقين .

(٤)

والـ (بعل) هذا من الآلهة الوثنيّة ، التي كانت معبودةً في منطقةٍ شاسعة ، حيث امتدّت الحضارة الكنعانيّة آنذاك . ومنها ، طبعاً، بلادنا.التي كانت من (أرض كنعان) . ومن المعلوم أن الرسالات، منذ أوّل الرُّسُل من أُولي العزم نوح عليه السلام، قد عملت

على هداية هؤلاء الكنعانيين الوثنيين .

في أوان النبي (إلياس) عليه السلام ، الذي عاش ، على قول المسعودي في *مروج الذهب* ، بين سليمان بن داود (ت:٩٣٣ قبل الميلاد) وبين المسيح عليهما السلام ، ــ في ذلك الأوان ، يبدو أنّ مدينة "بعلبك" العريقة ، التي يُقالُ أنّها أوّل مُدُن الدنيا ، كانت من المراكز الكبرى لعبادة الـ (بعل) . ومن ذلك أتى اسمها : "بعل بك" أي مقرّ أو محل أو موقع وثن الـ (بعل) .

وتقول أدبياتٌ تاريخيّةٌ ، أن (إلياس) عاش في "بعلبك" ، وأنّ دعوته كانت بين أهلها . ومن تلك الأدبيّات ما ذكره ابن كثير في *البداية والنهاية*، حيث قال: " **رسالته** [يعني إلياس] **كانت لأهل بعلبك غربي دمشق . وأنهم كان لهم صنمٌ يعبدونه يُسمّى بعلاً**" .

ويقول الطبري ما خلاصته ، أنّ دولة بني إسرائيل تشتّت بعد سليمان . وشاعت بينهم عبادة الأوثان . وعبدوا الصنم الذي ذكره القرآن ، واسمه بعل . فأرسل اللهُ إليهم إلياس عليه السلام .

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السياق، أنّه كان في أطراف "بعلبك" من غربيّها بناءٌ مَشيدٌ تعلوه قبّة ، منسوبٌ فيما يتداوله أهلُها إلى النبي إلياس، ظلّ قائماً حتى السنة ١٩٢٠ ميلاديّة على الأقلّ . إلى أن اجتاحته المقبرة المسيحيّة المُجاورة في توسّعها المُطّرد . فجرى هدمه والإعفاء على أثره .

وهذه هي صورة البناء ، يبدو فيها مقام النبي إلياس أعلى الصورة ، كما كان بتاريخ تصوير المقام على يد سائح فرنسي سنة ١٩٢٠ .

فذلك دليلٌ مادّيٌّ ، قادمٌ من زمانٍ سحيق ، على ما كان من حضورٍ للنبي إلياس في وُجدان أهل "بعلبك" . ما من ريبٍ في أنّه يرجع إلى فترة غلبة المسيحيّة على المنطقة ، أي ماقبل انتشارالإسلام . خصوصاً وأنّ موقع المقام أو المشهد هو في المنطقة الغربيّة ــ الشماليّـة من المدينة ، التي كانـت منذ القِـدم ،

وحتى وقتٍ قريب ، معمورةً بالمسيحيين . وما تزال تحمل الاسمَ المناسب . وفيها معالمهم ومدارسهم وكنائسهم . وفي غربيّها مقبرة موتاهم ، حيث هي اليوم من قديم الزمان . ولكن الخلَف نسوا أو لم يُقدّروا القيمة التاريخيّة ، بالنسبة إليهم قبل غيرهم ، لهذا المعلَم التاريخي الفريد . فأقدموا في زماننا على هدمه والإعفاء على أثره ، لحساب امتداد مقبرتهم .

يُذكرُ أيضاً أنّ شيخ الاسلام العثماني أبو السعود أفندي كان ممّا أخذه على علويي "الأناضول" ذكرهم اسم النبي إلياس في بعض شعائرهم الدينية .

فذلك ما لدينا في شأن (إلياس) ، بعثته ومحلّ دعوته وحضوره المعنوي بين الناس . ممّا مصدره نصُّ القرآن العزيز ، بالإضافة إلى ما استفدناه من وقائع عملانيّة / مادّيّة ومرويّاتٍ تاريخيّة . وإن تكُن من أصلٍ شفويّ ، شأن أكثر المادّة التاريخيّة القديمة.وهي مادّةٌ نُقدّرها لبُعدها عن الاختلاق المقصود .

وسيكون علينا في الفقرة التالية أن نُلِمَّ بما ورد في شأنه في العهدين القديم والجديد ، تحت اسم (إليياهو/ إيليّا) .

(٥)

صورة (إيليّاهو) : إلهي يهوه في التوراة مُبتسرةٌ ، حافلةٌ

بالغرائب وصنوف الكرامات والمعجزات .

فيما يخصُّ سيرته تقول في سفر الملوك ماخلاصته ، أنّه عاش في "جلعاد" ، "عجلون" اليوم . وأنّه على أثر انحراف بعض بني إسرائيل إلى عبادة البعل وعشتاروت ، تركهم إلى أن انتهى به التطواف إلى "صرفه". لعلها مدينة "الصرفند" ، من مُدُن السّاحل اللبناني اليوم . ولا تُشير إطلاقاً إلى أنّه ألـمّ بمدينة "بعلبك" من قريبٍ أو بعيد . كما تقول أنّه في نهاية أيامه على الأرض ، جاءت مركبةٌ ناريّةٌ وفُرسان ، حملته إلى السماء . لكنّ الرّبّ سيُرسله قبل يوم القيامة . ولذلك فإنّ بعض اليهود يتركون له مقعداً خالياً على مائدة عيد الفصح ، توقُّعاً لعودته .

المسيحيون يسمونه إلياس الحيّ وينتظرون عودته قبل المجئ الثاني للمسيح . وما تزال الكنيسة الشرقيّة تحتفل بعيد مارالياس في ٢٠ تموز/ جولاي . كما شيدت أديرةٌ وكنائس كثيرةٌ تحمل اسمه في مختلف البلدان . أشهرها "ديرمار الياس" في "معرّة صيدنايا"في "سوريا" . وله ذكرٌ جميلٌ في إنجيل برنابا ، الإنجيل الأقرب إلى الصحّة عندنا . حيث السيّد المسيح عليه السلام يُحدّث تلاميذه بموعظةٍ مُطوّلةٍ جرت على لسان إيليّا ، خاطب فيها رجلاً ضريراً . هي من أجمل المواعظ وأعمقها معاني .

فتلك لمحاتٌ على ألوان وأنماط صورة "النبي أيلا" / إيليّا / إلياس في الأديان الثلاثة . نراها كافيةً لبيان وتفسير حضوره الباهر لديهم جميعا . وبالخصوص الظاهرة الفريدة التي جعلت مقامه في قرية "النبي أيلا" مقصوداً من مسلمي ومسيحيي المنطقة ، على ماوصفنا ونوّهنا به آنفاً .

(٦)

يبقى أن نعالج سؤالاً،لابُدّ أنّه قد خطر للقارئ الحصيف .

ما الذي يدلُّ ، أو يؤيّدُ على الأقل ، صحّة نسبة المقام / المدفن المَزور في قرية "النبي أيلا" إلى النبي إيليّا / إلياس ؟

في الجواب نقول : الجواب القطعي على ذلك ومثله غير وارد . بل هو في مرتبة الاستحالة عمليّاً . ومن المعلوم أن شأن العمليّة التأريخيّة إجمالاً ، هو شأن كافة العلوم الإنسانيّة ، من حيث درجة اليقين التي تمنحها لمَن يُصغي إليها . غاية ما تمنحه درجة كافية من اطمئنان النفس إليها . وبالدرجة الأُولى من حيث انسجامها مع مواصفات المرحلة أو المراحل التاريخيّة التي حصلت فيها أو التي عبرتها .

بذلك الاعتبار نقول :

أولاً : ثمة نقولات شفويّة مُتداولَةٌ على نطاقٍ واسعٍ بين

أهل المنطقة ، تقول أنّ إلياس خرج من "بعلبك" ليأسه من أهلها، فلوحق من وثنييها، إلى أن أدركوه في البقعة التي هي اليوم مقامه، حيث قتلوه . هذه النقولات قويّة ، بعيدةٌ عن الكذب والاختلاق .

الثانية : إن وجود المقام حيث هو ، وإقبال أبناء المنطقة كافة عليه ، ينسجم تماماً مع المراحل التي عبروها بجمْعهم ، أثناء القرون المُتعاقبة ، من الوثنيّة إلى المسيحيّة إلى الإسلام .

هنا نُلاحظ ، استناداً إلى المقولتيَن أعلاه ، أنّ مايقوله ويعمل به التراث الشعبي لم ينشأ بالأمس القريب . بل هما ثمرة حالةٍ مُستمرّة منذ قرونٍ بعيدة. الأمر الذي يُعزّز النقولات الشفويّة.

ثم أنّ مايدلُّ على أصالة التراث والسلوك الشعبييّن ، أنّ زائري المقام المسيحيين لم يكترثوا عمليّاً بالأسطورة التوراتيّة ، القائلة أن إيليّا رُفع إلى السماء ، وباعتقادهم أنّه سيأتي قبل المجيء الثاني للمسيح . وعملوا بمقتضى ذاكرتهم التاريخيّة الجَماعيّة، القائلة أنه مات ودُفن حيث مقامه . لأن تراثهم يستندُ إلى وقائع ثابتة سجّلتها ذاكرتهم الجَمْعيّة. أمّا الأُسطورة فلها مستواها الخاصّ الخاضع لاعتباراتٍ كهنوتيّة . هذا الفارق في المستوى يحلّ التناقض بين مَن يُسميه (إلياس الحي) خضوعاً للتأثير الكهنوتي ، ومع ذلك فإنّه يزور مدفنه لخبرته التاريخيّة الموروثة .